د. سمر عبد العظيم

مَيِّت مطلوب للشهادة

حكايات من أروقة الطب الشرعي





تمّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب



د. سمر عبد العظيم: ميت مطلوب للشهادة، كتاب

الطبعة العربية الأولى: أغسطس ٢٠٢٣

رقم الإيداع: ١٦٤١٠ / ٢٠٢٣ – الترقيم الدولي: 1 - 372 - 806 - 977 - 978

عضو اتحاد الناشرين المصريين.
عضو اتحاد الناشرين العرب.
القاهرة - مصر
Mob +2 - 01020220053
info@dardawen.com
www.Dardawen.com

حين تعانق المشاعر الكلمات يولد من رحمها نص مُفعَم بالحياة، حتى وإن كان موضوعه عن الأموات. تكتب سمر عبد العظيم بمشاعرها، فتسمع صوتًا وإيقاعًا لكلماتها، وتستشعر عذوبةً ولحنًا في عباراتها التي جاءت على لسان شهودها الذين فارقوا الحياة.. مجموعة قصصية فريدة مَزَجت بحرفية عالية بين متعة الصياغة الأدبية ودهشة الحقائق العلمية التي تمرست عليها الكاتبة، فأنتجت نصًا ساحرًا في عالم شديد الخصوصية.. عالم الأموات.

الكاتب الروائي/ د. أسامة عبد الرؤوف الشاذلي

حينما يمتزج الأسلوب الأدبي الساحر مع العلم الراسخ والخبرة العملية الطويلة، تكون النتيجة عملًا قويًا ومؤثرًا وذا مستوى رفيع من الإبداع يحبس الأنفاس..

«ميت مطلوب للشهادة» هو عمل أدبي ساحر مقتبَس من مشاهد حياتية متفرقة خلبت لُبِّي وفؤادي منذ اللحظات الأولى لقراءتها، وأراهن أنها ستفعل المثل بك..

لمستُ في كل حكايةٍ فيه صدقًا وعاطفةً تأثرت بهما، ودمعت لهما عيناي في غير ذي موضع.. وهل يوجد أرقى من أن تسمع صوت من لا صوت له، ثم تنقله بصدق وأمانة للناس في قالب أدبي بديع؟

الكاتبة/ نهى داوود

كمجرم محترف حادّ الذكاء يختطفك السرد في هذا النص،

ويطوف بك في مسارات غريبة خارج أُطُر النمطية.. تسحرك الكتابة والصور المرسومة لفظيًّا، فتمضي بك حيث لا تشاء، لتطالع أدمغة الشر وهي تُكرر خطيئة الجد الأكبر «قابيل» عبر ممارسات خبيثة لا تعرف الرحمة، هنا أنت على موعد مع الفزع الحقيقي من حيوانية بعض البشر، تُقدمه مبدعة متميزة تمتلك أدوات الحكي الماتع.

الكاتب الصحفي/ مصطفى عبيد

تمهيد

«نحن نفسر الطبيعة على خطوطٍ وضعتها لنا اللغة التي نتحدثها»

بنجامين وارف



هناك نظرية أو فرضية في علم اللغويات اسمها «سابير وارف»، وتقول في نسختها المتطرفة بأنه كلما تعلمنا لغة جديدة تغير التكوين التشريحي لمخنا، وبالتالي التكوين الوظيفي.

مزجت النظرية بين عمل اثنين من علماء اللغويات، ليتطور مفهوم تأثير اللغة على الإنسان.

«البشر يعيشون تحت رحمة لغة معينة، وتلك اللغة تصبح وسيلة للتعبير في مجتمعاتهم، وهي وسيلة عرضية وطارئة لحل المشاكل الخاصة بالتواصل والتفكير، وحقيقة المسألة تكمن في أن العالم الحقيقي مبني إلى حد كبير ولاشعوري على الأعراف اللغوية للمجموعة، ولا يمكن للغتين متشابهتين بما فيه الكفاية أن تمثلا أو تعكسا الواقع الاجتماعي نفسه؛ فالعوالم التي تعيش فيها المجتمعات على اختلافها هي عوالم متباينة أي ليست عوالم متشابهة لها تسميات مختلفة، ونحن نرى ونسمع وبطريقة أخرى نعيش تجاربنا على نطاق واسع بالطريقة التي نقوم بها، فقط بسبب الأعراف اللغوية لمجتمعنا التي تجعله عرضة لخيارات محددة للتفسير والتأويل» إدوارد سابير ١٩٢٩.

من الواضح أن اللغة تُشكِّل الخبرة الحياتية وطريقة إدراكها ومعنى المفردات بها؛ فالوقت له نفس المعنى عند كل الشعوب، ولكن نتعاطى معه المجتمعات بشكل مختلف قد تكون مبنيةً على اللغة التي تأسرهم.

الطريقة التي نرى بها العالم والطريقة التي نتعامل بها مع مفرداته تختلف باختلاف اللغة التي نتحدثها، هكذا نشأت نظرية «سابير

وارف»، لتدَّعِي أن اللغة لا تؤثر فقط في ترجمتنا للواقع، بل وأيضًا في الطريقة التي نتعامل بها مع الواقع، والطريقة التي يؤثر بها الواقع علينا.

فإن أطلقنا لعقولنا العنان لاستنتجنا أنك إن كنت تعرف لغة إضافية فُمخّك له تركيبة خاصة، وكلما زادت معارفك اللغوية تمكَّنت من فعل ما لا يفعله غيرك.

إن تعلمنا لغةً زادت معها قدراتنا وفتحت لنا آفاقًا جديدة تشير النظرية إلى هذه القدرات على أنها واسعة المجال تبدأ ربما من القدرات الحسية إلى ما يفوق ذلك بكثير.

تلك هي النظرية، فماذا عن التطبيق؟

إن اعتبرنا أن للميت لغة تواصُل، وللجثث سبل استقراء، وأن هناك في هذا العالم مَن يجيد فهم هذه اللغة فسيكون له قدرات خاصة لا محالة.

أذكر فيلمًا أجنبيًّا مؤثرًا جدًّا شاهدته عدة مرات اسمه «الحاسة السادسة»، وهذا الفيلم يحكي حكاية ولد له قدرات خاصة تُمكِّنه من التواصل مع الميت، وكيف أن ذلك يُغيِّر من إمكانياته، ويجعل حياته صعبة حتى يتمكَّن من توظيف تلك القدرة فيما خُلِقَت له...

الطبيب الشرعي يقرأ ويتحدث لغة التواصل تلك، ويبني عليها قدرات تشخيصية خاصة.. فقد تدرَّب وتعلَّم كيف يُطوِّع تلك اللغة لخدمة العدالة ولمنح المتوفَّى صوتًا بعد أن انقطع صوته.



صوت الميت ولغته ليست بالضرورة صوتًا مسموعًا، ولا جزءًا من فيلم رعب، ولكن دون شك تنضح الجثث بحكايات لا يقرأها إلا من امتلك القدرة على الاستقراء.

حكاوي كتاب «ميت مطلوب للشهادة» هي ترجمة لمشاعر من توفُّوا في حالات جنائية، والتي عزَّ عليهم توصيلها والتعبير عنها إذ انقطع صوتهم.. يترجمها طبيب شرعي، وكل طبيب شرعي له قدرات مُغايرة تعتمد على درجة إجادته للُّغة.

الطب الشرعي هو ذاك العِلْم الذي يتعاطى مع الموت من منظور مغاير؛ فهو يرى أن للموت قدسية، وحق أدائه لا يكون إلا بفكِّ طلاسمه وتبيان خفاياه.

لأن الموت وما يحيط به من غموض هو جزء من محتوى الكثير من حكايات الرعب والغرائبيات، فإن عمل الطبيب الشرعي أيضًا يحيق به من هذه الغرائبيات الكثير؛ فالروح وما هي عليه، والحياة بعد الموت كلها من عِلْم الله، ولا يستطيع أحد أن يُجزِم بأنه يعلم، فبالتالي الحكايات تتعدد على اختلاف الرواة، ويبقى بينها عامل مشترك، وهو أن غير المعلوم دائمًا ما يكون مادة للإبداع عند المبدعين، والفزع من المجهول عند من هم دون ذلك.

تستطيع لمس ذلك دون شك في المشرحة، وهي المكان الذي يألف الموت والحزن والغموض، ويشهد دموع محبين ووداع الأهل والخلان، وشعور المسؤولية عند البعض. تمر كل هذه المشاعر من خلال دار التشريح، فيصبح المكان مشبعًا بعواطف لا

تنقطع، وكأنها لصيقة بالمكان كالطلاء على جدرانه.

هذه المشاعر يتلقاها الإنسان المارُّ بدار التشريح بحسب موطن قدراته، فإما أن تموج في داخله فتقلِّب عليه الإبداعات كموج يُقلِّب الرمال من قاع المحيط، وإما أن تقلِّب عليه فزعًا اختزنه في أعماقه منذ صار له إدراك يعجز عن فهم ما حوله من ظواهر.

هكذا أصبحت حكايات الموتى والعوالم السفلية محور أحاديث العاملين في دار التشريح، بل والقاطنين في المنطقة المحيطة بالدار وللحكايات شجون.

يروي الراوي قصص أصوات بكاء وصراخ تأتي من الثلاجات حيث ينام الموتى ليلًا، ويروي آخرون مشاهدات حول دار التشريح لفتيات يراهُن المارة على سُلّم دار التشريح، ثم يختفين وكأنهن وُلِدْنَ من السحاب، والحكاوي كثيرة ولا تنقطع، والخلاصة هي أن ما نجهله يبقى هو المادة الأساسية للتكهنات والأساطير.

لكل ميت حكاية يعجز عن سردها؛ إذ انقطع صوته، وصار في عالم آخر لا نعرف قوانينه بالضبط، وفي كثير من الأحوال الجنائية تكون الأسرار التي في حوزة المتوفى عالية القيمة، واستنطاقه إن كان ممكنًا كان سيكون باهظ الثمن عظيم القيمة.

وُلِدَ علم الطب الشرعي في الصين في القرن الثالث عشر، حين كان يُنظر للحاكم في سلالة «سنج» الحاكمة بأن له من الألوهية ما يجعل له عينًا ثاقبة وقدرةً على كشف المستور واستنطاق الموتى، بيد أن هذا المفهوم وإن تطوَّر فلم يسقط عن الطبيب الشرعي



حتى يومنا هذا.

ولكن لقرون قبل ذلك كانت دراسة الموت وأسبابه محور اهتمام أصحاب الحكم والنفوذ والدين، وإن تعددت الأسباب، إلا أنه بدا وكأن من يملك هذا العلم يملك القوة والحكم، ولذلك عيَّن الملك ريتشارد الأول بجزيرة إنجلترا في العصور الوسطي ما سُمِّيَ بـ«قضاة تحقيق الوفاة».

أما عن أول عملية تشريح جنائية فهي تلك التي كان بطلها يوليوس قيصر ميتًا بعد أن وانته طعنات غدر اتضح أنها ثلاث وعشرون طعنة نافذة لم يقتله منها سوى تلك التي جاءت مصحوبةً مع خيبة أمله في بروتس صديقه، فهوى بها إلى الأرض نطيحًا، وانتقل إلى عالم الموتى على كلمات عِتَابه التي خلَّدَها التاريخ بعد ذلك: «حتى أنت يا بروتس؟!» وبذلك أسس مشرحوه ليس فقط لعلم التشريح الجنائي، ولكن لتبيان العلاقة السببية بين الفعل والضرر المؤدي للوفاة.

ثم جاء عصر النهضة، وأصبحت الأمم تُعرف بقدرتها على التعامل مع الموت الجنائي، وما تبع ذلك من قوانين وُلِدَت في فرنسا، ثم غزت العالم محمولةً على أنصلة حملاتها، فكان أول طبيب شرعي عرفه العالم هو حلاق وجراح فرنسي اسمه أمبروز بيري.

مع استنارة العالم وبداية عصر التنوير بدأ الطب الشرعي يتحول إلى علم موثق ذي مرجعية، فبدأ ينتقل من إنجلترا إلى مستعمراتها، فكانت مصر في مستهلِّ البلدان التي تجرعت هذا العلم، ثم أضافت له خبرات لا تنتهي.



هل حقًّا هناك من الغرائبيات حول الموت الغيلة كما تروي الروايات؟

للإجابة عن هذا السؤال تجب الإشارة إلى طبيعة عمل الطبيب الشرعي ودوره الذي يكلف به بمجرد نطقه للقَسَم، نعم فكل طبيب شرعي يتعاطى مع الحالات الجنائية يجب أن يكون مُحلَّفًا، ويجب أن يعمل بوزارة العدل، ذلك يعني أنه خبير مُحلَّف بوزارة العدل، وهذا هو الهيكل المقام لتلك المهنة منذ أيام سير سيدني سميث؛ حيث أعاد ترتيب العمل في هذا المجال، ليكون لتلك الإدارة (إدارة الطب الشرعي) التبعية لوزارة العدل، وبالتالي فالطبيب الشرعي له ثقة القاضي وعليه مسؤولياته.

ولكن الطبيب الشرعي في الأصل طبيب يتخرج في كلية طب ما، وبالتالي عليه كل ما على أي طبيب من مسؤوليات نحو المريض وأهليته؛ من الحفاظ على سِرِّية المريض، وكذلك إبداء مصلحته فوق أي مصلحة أخرى.

لذلك كان للطبيب الشرعي أهمية كبرى للحفاظ على حق المجني عليه، ودورًا لا يمكن إغفاله.

نقول: إن الطبيب الشرعي قاضٍ فني له احترام القاضي وقدسيته، ولكنه كذلك رجل مشاهدات يجب عليه أن يكون واعيًا للتفاصيل، ويستطيع أن يستقرئها ويجد لها من التفسيرات ما يعجز غيره عن إيجاده.

استقراء الموتى تمامًا كأنك تقف أمام لوحة سريالية معناها في وجدان صانعها، وترجمتها تُبنى على وجدان قارئها، فمن الناس

من يقف أمام الموت فيرى فيه غموضًا وعظة، ومنهم من يرى عالمًا من الغرائبيات، ومنهم من يقف فيرى في الموت صورة لن تكتمل إلا بترجمة الرسائل.

الطبيب الشرعي هو ذاك الشخص الذي يرى اللوحة، ولديه من الأدوات أن يفهم ما في وجدان صانعها، فليس كافيًا أن يقرأها بما يدور في وجدانه الشخصي، ولكن يجب معرفة ما كان في ضمير صانعها، كيف يفعل الطبيب الشرعي ذلك؟ كيف يدخل في وجدان صانع اللوحة؟ وكيف يجيب عن تساؤلات ذلك الشخص الواقف أمام اللوحة ويطلق لخياله العنان فيرى فيها أحلام طفولته ورغبات شبابه؟ عليه أن يستخرج من ألوانها ورتوشها حقائق يستطيع بها أن يعيد رسم الصورة بشكل لا يقبل سوى تأويل واحد.

لذا على الطبيب الشرعي أن يقرأ كل المشاهدات الموجودة على الجثة، ولكل منها معنى منفرد، ولاجتماعها معنى مجتمِع يجب عليه أن يستنتجه، ولكن كما هو الحال فالموتى لا يبوحون بأسرارهم لأي شخص، فمن الممكن أن يقف أكثر من شخص في دار التشريح في مناظرة جثمان أحدهم، ولا يبوح الميت سوى لأحدهم.. يبوح لذلك الشخص الذي يرى الشاهد، ويسأل السؤال الذي يستدلُّ به بعد ذلك على سبب الوفاة الحقيقي.

مناظرة الموتى هي مزيج من قراءة ما نراه بالعين المجردة والإجابة عن الأسئلة المهمة وهو ما يفعله الطبيب الشرعي الجيد، فإن لم يجد الطبيب الشرعي في داخله الدافع ليسأل السؤال الصحيح، فلن يصل أبدًا لقرار.

ولكي يسأل الطبيب الشرعي السؤال الصحيح يجب عليه أن يستمع جيدًا، ويُعمِل جميع حواسه لاستقراء الظاهر والباطن.

هكذا يكون الطبيب الشرعي مشحوذ الحواس ذا قدرة عالية على الاستقراء والتواصل والاستماع لما يبوح به الجسد المكلوم، ولذلك تسمع كثيرًا من الحكاوي يحكيها القائمون على عملية التشريح عن ظواهر عجيبة ومشاهدات وأصوات داخلية يسمعها الناس؛ منها الحقيقي، ومنها غير ذلك، كما أنه يجزم أحدهم أن لكل ميت هالة، وأن الشعور يختلف في دار التشريح مع كل ميت، حتى إنك تكاد تجزم أن الحائط يتلوَّن بلون مغاير مع كل حالة، ومن ذلك ما هو حقيقي، ومنه ما هو مُقحَم، ولكن بالتأكيد فإن الحواس الملتهبة المنفتحة على إشارات الكون من المؤكد أنها تلتقط ما لا يلتقطه غيرها.

في عالم اللاعِلْم وعالم الخرافة في كثير من الأحيان يدور التحدي حول التواصل مع عالم الموتى لجلاء بعض هذه الأسرار، وما أعد به القارئ أن هذا الكتاب وما يحويه من قصص بعيد كل البعد عن هذا..

في منظوري ومنظور أي عالِم يعي أن للكون أسرارًا لم يبُحْ بها بعدُ، فإن الأدوات المتاحة لجلاء الأسرار ومعرفة الحقائق يجب أن تقوم إما على ثوابت علمية أو خبرات معملية أو ميدانية.. حكايات «ميت مطلوب للشهادة» كلها حكايات استنطاق الموتى باستخدام هذه الخبرات الميدانية التي يملكها الطبيب الشرعي.

هذا الكتاب به قصص تُروى على لسان الموتى، وفي محاولة

لتوصيل رسائلهم للعالم، فإنهم جميعًا يجدون في الطبيب الشرعي الأذن التي تسمع، والقلب الذي يعي، فتصبح كل حكاية هي رقصة بين المتوفى وقارئ جثمانه.

حين شرعتُ في كتابة هذه المجموعة كان هدفي الأول هو بيان أن الجثث تبوح بأسرارها فقط لمن يستطيع قراءتها، وكان من الممكن أن أسلك أسلوبًا روائيًّا شيقًا يغزل الأحداث بداخله، ولكن كان الشعور المسيطر عليَّ أنه إن كان للطبيب دور في دار التشريح فإنني أنا الأخرى لي دور في جلاء المستور، كثير من هذه الحكايات هي حكايات مستوحاة من قضايا سمع القارئ عنها في الصحف، أو ربما في برامج حوارية، حيث يجلس الجميع فينظر وكأنه حضر الجريمة شاهدًا عليها، كان هدفي أن يستمع القارئ لتجربة المتوفى على لسانه هو، ويقدّر التجربة غير العادية التي مرَّ بها، علَّ ذلك يُضفي على الموت الاحترام الذي يستحقه ويكسب تجربة المجني عليه التعاطف الذي يليق بمعاناته، فكل موت فاجعة حتى وإن كان الميت مجرمًا عتيدًا.

لأي جريمة أركان؛ منها: الجاني، والمجني عليه، ومسرح الجريمة، والطبيب الشرعي الذي يحكم في الشقِّ الفني، وسلسلة «ميت مطلوب للشهادة» هي أولى المجموعات التي تنطق بواحد من هذه الأركان.



الحكاية الأولى

ضمير مسجون

«في الطب الشرعي كل شيءٍ قرينة، وكل قرينة هي حلُ محتمل»

جيفرسون باس

(١)

«فأنا لم أكن يومًا ذا نفع لأحد، ولن يبكيني عند الرحيل حتى هِرَر السُّلَّم».

هكذا جاءت رسالة انتحاري التي استقرَّت على سطح المكتب الخشبي في انتظار من يجدها... وكأنها كانت تعرف أن في وسط مشهد بحر الدماء كان من الممكن ألا يلاحظها خبير الأدلة الجنائية، خاصة وأنها كانت قد تدثرت بكتيب مذكراتي الذي وُضِع فوقها ليجعل منها الصفحة الأخيرة في سلسال إحباطاتي منذ وُلِدْتُ..

لا أذكر كتابة هذه الرسالة، ولكنها بدت طبيعية جدًّا كنهاية لكل ما عشته من رفض منذ جئت إلى هذا العالم مجهول النسب.. قالوا عني في الملجأ إني كنت متمسكًا بالحياة في ليلة شتاء قارص، وأنا عارٍ أمام مسجد الحسين في مشنة خبز فارغة.

قبل وفاتي بيومين كنت قد تناطحت مع صاحب المنزل على إيجار متأخر.. هددته فهددني هو الآخر.. سمعَنَا الجيران نتلافظ كالثيران.. أذكر أني ربما لكزته، فمنذ زمن توقَّف مخي عن العمل، وأصبحت ذراعي تتحدث عني كثيرًا..

سمعت اسم جاري يتردد على لسان الطبيب الشرعي، وهو يقرأ التحقيقات.. أقتَلَني حقًّا؟! عرفت أنه ربما اعترف في النيابة بعد ضغط شديد من المحقق.... أحقا قتلني؟؟ يا لبؤسي! كيف استطاع أن يباغتني فيقطع عنقي؟؟ أحقًّا حدث هذا؟ لا أذكر.



وقف الخبير وسط بحيرة من الدماء، محاولًا فك طلاسم الحدث الرهيب الذي أودى بحياتي... تلك الحياة التي لا تفوق قيمتها قيمة محتويات منفضة السجائر...

كانت الدماء في كل مكان، لكن أكثرها كسا المرآة القابعة على الحائط الخشن في الحجرة الوحيدة التي كنت أحيا بها... تلك الغرفة بحمامها المرفق التي استأجرتها منذ ما يقرب من ستة أشهر فوق منزل عتيق بالسيدة زينب.

«لا أدري إن كان انتحارًا كما هو موضَّح بالرسالة... فالحادث رهيب، ولم أرَ من قبلُ منتحرًا قُطعت رقبته».

هذا آخر ما قاله خبير الأدلة الجنائية، وهو يخرج من مكان الحادث، وقد أخذ الأحراز والصور.. صور للدماء على الحائط.. صور للسكين الغليظ الغارق في الدماء، والذي كنت أحكم الوثاق عليه في يدي اليمنى.

لم تكن هذه المرة الأولى التي أُمسك فيها سلاحًا أبيضَ... فأنا اعتدتُ حمله ولم أكن أخشى استخدامه.. وكيف لي أن أدافع عن نفسي في هذا العالم، وأنا فيه الوحيد الذي لا ظهر له؟ كانت حياتي سلسلة من الإخفاقات والاختيارات الخاطئة.. اخترتُ أن أترك المدرسة لأستقلَّ سريعًا.. اخترتُ أن أفقأ عين ذلك البلطجي الذي غالطني في بضعة جنيهات.. اخترتُ أن أقطع رقبة الرجل الذي حاول التحرُّش بي في عنبر السجن، فاستحال حكمي من عشر سنوات لمؤبد.. اخترت ولكني لم أخترّ أبدًا أن يُفرَج عني ضمن عفو عام لأجد نفسي وسط هذا العالم الصاخب من

جديد.

حين غارت السكين برقبتي انقطعت شراييني وأوردتي، وانفجرت الدماء لتلطّخ المرآة والحائط، ولتخضب ملابسي الرثة.. خرجت الدماء باندفاع وكأنها نافورة راقصة لتعود فتهبط من جديد.. فغرقت في دمائي.. حتى ملأت حنجرتي المفتوحة وصدري ورئتيَّ وانقطع الهواء.. كنتُ كالغريق دون بحر، أعافر من أجل الهواء، فسقطت أنازع نقص الهواء وضمور مخي على إثره.. تذكرت حياتي التي لا طائل منها.. ترى هل هناك حياة أخرى بعد الموت؟ سيكون مشهدًا حزينًا إن كان هذا هو كل ما في الأمر، وينقضي العمر على.... لا شيء.. قضيت عمري كله مسجونًا بين سجن عار لم أقترفه إلى سجن فضل لم أستحقه، إلى سجن نفس لم نتعلم يومًا أن تحيا حُرَّة.

«لا أريد إفراجًا وأنا أناهز السبعين»، هكذا كتبتُ في مذكراتي الغثة.. ترى من سيقرأ تلك السيرة الفارغة؟ أم إنني كمثل كل ما انقضى من حياتي أضعتُ وقتي في نقش حروف نافقة؟

ماذا أفعل عند خروجي من السجن الذي اعتبرته بيتي.. كنت أظنني سأموت فيه.. وكنت أسأل دومًا عن مقابر الصدقة، وأعرف أنها ستكون مآلي الأخير.. ولكن حتى العفو لم يكن اختياري كسائر عمري الذي لم أختَرْ فيه شيئًا.. كلباس العيد الذي كان يجود به عليَّ أصحاب الفضل في الملجأ.. لم أختره يومًا.

على منضدة التشريح قبعتُ، وأنا أستمع لأمر النيابة «بيان انتحار المذكور من عدمه».. عرفت أني فقدتُ اسمي، وأصبح اسمي

الآن: «المذكور.. الجثة.. المتوفى»...

عرفت أني... متُّ..

لَمَ أشعر بأني ما زلت هنا؟ هلا تركتموني أرحل؟

وقفت أمام المرآة أنظر إلى وجهي.... كم أكرهه... كأنه قناع، قناع مخيف ما عدتُ أدري إن كان وراءه ما يستحق العيش حقًّا، كنت قد أَلِفْتُ حياة السجن.. نظرت حولي في الغرفة ذات الشباك الواحد الصغير ورائحة الملابس القذرة.. والفَرْشة المبعثرة على الأرض، والتي كانت قد استضافتني لأشهر مضت.. أشهر لم أنهض فيها مرة لأفتح للشمس وأسمح لها بالدخول.. كان الباب والشباك يسببان لي الهلع؛ فوراءهما عالم كبير أناسه كثيرون.. عالم لا يريدني ولم أعد أريده.. وقفتُ هناك أستطلع ذقني النابتة وأسناني الصفراء ووجهي الهاربة منه الدماء.. أمسكت بالقلم الذي كان ونيسي في السجن منذ عقود.. قطعتُ ورقة من دفتر مذكراتي، وكتبتُ لعالم لا يريد أن يقرأ.. سكين المطبخ في يدي وعدت لأذبح ذلك المسخ القابع في المرآة..

«اسمعني».. صرخت تحت أضواء منضدة التشريح.. همس الطبيب في أذني: «ارتاح.. أنا أرى بوضوح».

صور رقبتي من كل الزوايا.. باغتتني صورة جاري وصوت بكاء أولاده عليه وهو يساق إلى عربة الشرطة، فاعتصر قلبي، لا أريد أن أترك العالم وقد آذيت شخصًا إضافيًا سقط منهارًا تحت وطأة التحقيق فاعترف دون ذنب.. يكفي مَن ذبحت.. ومن قتلت.. ومن آذيت...

سمعته يُهَمهم ويسجل في جهازه الصغير: «الجرح يبدأ من خلف الأذن اليسرى، وينحدر قليلًا حتى ينتهي بعد منتصف الرقبة.. حوله عدة جروح غير نافذة»..

تذكّرتني وأنا أقف أمام المرآة أحاول أن أنهي حياتي البائسة، فتخونني شجاعتي مرة واثنتين وثلاث، لكن ينتصر كرهي لنفسي في المرة الرابعة، فيغور الجرح وسط كل الجروح الفاشلة حتى تخور قواي إثر النزف، ولا أقوى على الاستمرار فأسقط مرديًّا..

ارتاحت قبضة يدي التي كانت قد توترت على مقبض السكين الذي ذبحني.. ارتاحت حين ارتخت كل عضلاتي وأنا أستمع للطبيب الشرعي يؤكد: «كان انتحارًا، فالجرح لم يتعدَّ منتصف الرقبة وليس أفقيًّا كذلك الذي يُحدثه قاتل..»

تسألون عن العنف وعن دمائي التي أغرقت الغرفة وأغرقتني.. تسألون لِمَ اخترتُ أن أقطع عنقي؟ ابتسمتُ لنفسي قليلًا.. فأنا قطعت رأس الشيطان القابع في المرآة، ولن يملك مني بعد اليوم شيئًا، أما أنا فلستُ موجودًا وربما لم أوجد قط.. أنا جئت ورحلت ولم أترك لقدميَّ أثرًا.

هامش: الانتحار بقطع العنق

من نوادر الطب الشرعي، وتُعتبر من الحالات الغريبة، ولكن ليست النادرة في الانتحار وهي حالات قطع العنق.

تأتي هذه الحالات لتثير الكثير من التساؤلات حول إمكانية إقدام أي شخص على فعل بهذا القبح وهذه الوحشية، في حالات

الانتحار كل علامة لها مدلول، وتُسهم في رسم بروفايل للمجني عليه، فلا يسعنا أن نخطئ العلامات ولا أن نتغاضى عنها.

عمل الطبيب الشرعي هو مزيج من الفن والفكر والتفكر، حين يواجه حالة انتحار تبدأ رحلته في الغوص في تفاصيلها، ونقطة البداية هي فهم سيكولوجية المنتحر، هل كان فاقدًا لإحساس الذات؟ فكثير ممن يُقْدِمون على الانتحار تساورهم أحاسيس فقد الذات والشعور بأن هناك خواءً داخل الجسد وخلف الوجه الموجود في المرآة، ولكن بلا شك هناك عوامل كثيرة تسهم في الصورة الذهنية التي يرسمها الشخص المنتحر لنفسه فيما يسبق قرار الانتحار، منها وفي مقدمتها سلامة العقل وما قد يصيبه من فصام قد يؤدي إلى هلاوس بصرية أو سمعية، ومنها كذلك الصور الذهنية التي يسترجعها عن حياته وما عاش عليه.

ولكن السؤال الدائم الذي يراود المُشرِّح هو كيف يقوم المنتحر باختيار وسيلة الانتحار، وقد اعتدنا الميل إلى نظرية أن أداة الانتحار عادة هي أداة موجودة في حوزة الشخص المنتحر، وهي قريبة من ذاكرة عضلاته، وله خبرة في استخدامها، ولكنها كذلك أداة قد تتأثر بدرجة الغَضْبة التي يعيشها الشخص المنتحر قبل الإقدام على الانتحار، ولذلك الشعور دور مهم جدًّا في انتقاء الآلة المستخدمة.

اختيار الآلة كما نرى، واختيار الأسلوب هو مزيج من مؤثرات كثيرة جدًّا ينتج عنها صورة يراها الطبيب الشرعي كمخرج، وتنتهي إلى شكل لمسرح جريمة له خصائصه التي لا تراها إلا العين المتمرسة.

فكُّ شفرات مسرح الجريمة في حالات الانتحار هو تفنيد لكل العوامل السابقة، ورسم بروفايل للمجني عليه لا يتنافى مع تصوير الجريمة.

عملية معقدة تبدأ بفهم المجني عليه، والشعور به، وتفهُّم مشاعره قبل لحظات الانتحار تساعد على الإجابة عن بعض الأسئلة:

لم يقف المنتحر أمام المرآة؟ وهل كل من انتحر وُجِدَ أمام المرآة؟

ما الذي يدفع شخصًا ما إلى الرغبة في رؤية انعكاس صورته وهو يموت؟ الإجابة عن هذا السؤال موجودة في الحكاية الأولى.

في الطب الشرعي اعلم أنه لا يوجد مستحيل، ولا يوجد تأكيد، ولا يوجد نفي مطلق.. يوجد فقط إعمال عقل وتفهُّم مشاعر الميت؛ لتعرف ما جعل المُحَال ممكنًا.

الحكاية الثانية

اعذريني

«في الطب الشرعي يقطن الشيطان في التفاصيل»

كاثي ريتشز



(٢)

صوت صرير السقف الخشبي وقد أنَّت ألواحه من أثر ثِقَل جسدي المتدلي منه.. تراقص نور الثرية على إيقاع منتظم وجسدي يترنح يمينًا ويسارًا كبندول الساعة.. سكون قاتل لم يقطعه سوى صرخة فزعة أطلقتها السيدة البدينة التي وقفت على باب غرفة المكتب في زيِّها الرمادي المنمق، والذي يرتديه غالبًا كل الخدم بالمنزل الكبير الذي كنت أعيش فيه.. أقول «كنت»، ولا أدري لِمَ لا أزال هنا وأنا في أغلب الظن.. ميت.

نظرتُ لجسدي المعلق.. يبدو وجهي شاحبًا، بينما تكسو ملامحي علامات حزن عميق.. أكاد لا أعرفني من فرط القهر المرتسم على كل تفاصيلي.. انتهت حياتي ولم أعد أبالي.. منذ متى وأنا أهتمُّ بأي شيء.. تذكرتُ كيف كنتِ تقفين أمامي معاتبةً:

«ليس لي في يومك حق.. أليس من حقي قليل من الاهتمام؟».

أعلم أني أتعبتك كثيرًا.. أعلم أني أصبتك بالإحباط مرارًا.. ما بين احتياجك لزوج لم أستطع أن أمنحك إياه، وبين أحلامك فيما كنت تمنينه لنفسك في حياة مع من تحبين.. اختزلته أنا كله في حياة صارت أشبه بسباق في مضمار لا نهائي..

نظرتُ لأصابع يدي التي تدلَّت إلى جانبي.. تورَّمت أصابعي وصبغتها زُرْقَة من أثر تراكم الدم بها بفعل الجاذبية.. إلا تحت الدبلة في إصبعي.. الدبلة التي تحمل اسمك

تذكرتُ يوم ذهبنا معًا لنبتاعها وكانت أساريرك متهللة.. كانت عيناك تلمعان حتى ظننتُ أن بريق الماس بالمتجر انطفأ إلى جوار وهجها.. تذكرتُ كذلك كيف انطفأ بريقك يومها حين اعتذرت منك: «سأتركك الآن لأن لديَّ اجتماعًا مهمًّا.. اختاري ما تحبين.. يعجبني ذوقك».

أذكر الحيرة التي ارتسمت على ملامحك يومها.. رأيتُها، ولكن ذلك لم يثْنِنِي عن الذهاب.. رأيت تلك الحيرة مرارًا منذ ذلك اليوم.

حيرة أشبه بحيرتي الآن، وأنا أقف أمام جسد كنت أقطنه إلى وقت قريب.. تحت رجلَّي كرسي خشبي انكسرت إحدى أرجله الأربعة، فأرْدَتْه على جانبه مهشمًا.. تذكرتُني وأنا أصعد الكرسي بوزني الثقيل.. على مدار العامين السابقين لوفاتي كنت قد اكتسبت وزنًا زائدًا من أثر التوتر الدائم، وأسلوب حياتي الذي لطالما وصفتِه بغير الآدمي..

«أعْطِ نفسك وقتًا للحياة».. كنت تقولين هذا كلما رأيتِ سهدي وتوتري، وتسألينني: «متى ستعيش لتتمتع بحياة اجتهدتَ لتبنيها؟».

أذكر كم كنت أحنق عليك حين تتحدثين هكذا.. كنت أكره الحزن الدائم ونظرة عدم الرضا في عينيكِ.

كنت أكرهه.. كان فشلًا أعيشه كل يوم، وأنا الذي لم أذق طعم الفشل يومًا.. كنت زوجًا فاشلًا لا أستطيع أن أسعدكِ..

أعلم أني أحببتك كما لم أحبَّ أحدًا من قبل.. لكن هل

أحببتِني؟

داعبَتْ عقلي ذكرى أول عيد ميلاد لكِ وأنت حبيبتي، وجدتُك قبلها بشهر تُذَكِّرِينني به وكأنك تخشين على نفسك الانكسار إذا ما نسيتُه من كثرة انشغالي.. لم أشكرك يومًا على ذلك، ولكن أريد أن أشكرك الآن.. كنتِ تعرفينني أكثر من نفسي..

«هو أول عيد ميلاد لنا معًا.. أرجوك حبيبي أحتاج أن أشعر بأنك معي».

تداخل صوتك في مخيلتي مع صوت سارينة سيارة الشرطة، وقد أتوا على إثر بلاغ الخادمة.. بحثوا كثيرًا في موقع الحادث، فلم يجدوا رسالة انتحار.. وجدوا الخزنة وبابها فاغر على فراغ بداخلها.. وجدوا زجاج النافذة وقد تفتَّتَ فصار تُرابًا.. وجدوني وقد تدليتُ من الثرية بحبل غليظ.

أشعر بصقيع يجتاح جسدي.. أخوف هذا؟ أم تراه إحباطًا وأنا أسمع «شبهة جنائية والتحويل للطب الشرعي»..

إحباط ذكَّرني بذلك الاحباط الذي امتقع به وجهك وأنا أخبرك بأني سأسافر، ولن أتمكن من الحضور يوم عيد ميلادك.. رأيتُك يومها تبتلعين فزعك سريعًا، وتُلملمين قُوَاك التي خارت أمامي، وترسمين ابتسامةً ظلت على وجهك منذ ذلك اليوم وحتى اليوم الذي ودّعتِني فيه..

كانت تلك الابتسامة المستسلمة هي ردُّك الوحيد على كل

شيء جمعنا منذ ذلك الوقت.. رأيتك وقد استنزفك الحلم والأمل والأمنيات حتى صرتِ لا تقوين عليهم..

رأيتك تنغلقين على نفسك يومًا بعد يوم، وكأنك تخفين بداخلك إحباطًا شديدًا، ولم أستطع أن أمحوه بالهدايا أو بالوقت المسروق الذي كنت أجتهد في اقتطاعه لكي أرضيكِ.. بدا أنك لا تتقبلينه.. وكأنك تحمين نفسك طوال الوقت من التعلّق بي..

قرأ الطبيب أمر النيابة: «وصف ظاهري وصفة تشريحية لبيان سبب وآلية الوفاة».

استسلمتُ على طاولة التشريح والطبيب الشرعي يعاين رقبتي معاينةً ظاهريةً.. استسلمتُ استسلامًا ذكّرني بنظرة عينيكِ وأنت تقولين: «لا أريد إلا أن تكون سعيدًا.. لا أريد شيئًا لنفسي».

مع استسلامكِ انغلقتِ، ولكن مع استسلامي للطبيب الشرعي انفتحتُ وفتحتُ جعبة أسراري كلها..

«وجهه أبيض غير محتقن، فقد تُوُفِّيَ غالبًا من انقطاع الدم، وبالتالي الأكسجين للمخ».

تذكرتُني وأنا أقف على الكرسي، وقد التفّ الحبل على رقبتي.. كنتُ أريد أن أودِّعَكِ، كنتُ أريد أن أعتذر منكِ.. أن أُخبركِ بأنني أحببتك أكثر من نفسي.

«لا أريد شيئًا.. فقط كن سعيدًا..»

لكني يا «منى» لست سعيدًا اليوم.. ولم أكن سعيدًا في الأسابيع الماضية.. منذ ذلك اليوم الذي أفقتُ فيه على صراخك: «اتصل

بالإسعاف.. سأذهب للمستشفى الآن».

أفقتُ من غفوتي على ألمك الذي أخفيتِه عني كثيرًا، أم تراني لم أرَهُ كعادتي؟ هل ربما أخبرتني أنكِ زُرتِ الطبيب ولم أسألك عن السبب؟ لا أذكر.. لا أعلم.. هل تركتِ تحاليلك وأشعاتك أمامي لعلني أراها فلم أُعِرْها اهتمامًا؟ ربما! لا أدري..

«أثر الحبل على رقبته متصل من الأمام، ويرتفع إلى أعلى وينحسر عن رقبته بالخلف.. كانت عقدة ثابتة»..

راحة شعرت بها رغم أني ربما لم أستحقّها حين سمعتُ الطبيب الشرعي يقول: «لقد تُوُفي سريعًا».

أشعر بالحنق على نفسي.. حتى في موتي أتركك تتعذبين في أيامك الأخيرة، وأختار أن «أموت سريعًا».

اعذريني يا «منى» كما كنتِ تعذرينني دائمًا.. لم أقوَ على مشاهدتك تتألمين، ولم أستطع أن أُسكت صوت ضميري..

كنت أظن أني أرضيك بما أملك، رغم أنك أخبرتِني مرارًا: «لا أريد شيئًا سواك»، لكني منحتك كل شيء إلا ما احتجتِ إليه.. فتحتُ باب الخزنة فأفرغتها.. سلّمتُ المال كله لمساعدي؛ ليدفعه تحت حساب المستشفى.. أظنه سيكفي.. فمنذ سمعت الطبيب يبلغني بأنه «إن هي إلا أيام» وأنا أتساءل إذا كان كل ما عشته من جهد وضنى يستحق..

أخشى أن تتذكريني أنانيًّا فأنا لست كذلك.. أنا أحبك وعزائي أنك كنت تعرفين ذلك.. كنت أظن أنه حين وقفت والحبل

حول رقبتي أنه سيتاح لي الوقت لأحادثك على الهاتف، ولكن باغتني الكرسي بالتسليم لوزني الثقيل، وبثقل جسدي تمددت رقبتي حتى انكسرت.

حين فتحتُ الخزنة وقعت عيني فيها على آخر هدية أهديتِني إياها في عيد ميلادي الأخير..

كنتِ كلما دخلتِ عليّ مكتبي تتساءلين: «لِمَ لا تضعها على المكتب فترى رسالتي لك المنقوشة عليها؟» وكنت أبرر الأمر بأنني أحتفظ بها خوفًا عليها.. تمنيتُ لو أني وضعتها على المكتب لكي تَرَيْها وتفرحي.. لكني كعادتي.. تأخرتُ.

شعرتُ بغضب شديد يجتاحني، ولم أشعر إلا وقد صببتُ غضبي على زجاج النافذة الذي انهار حين قذفتُ هديتك عليه.

صوت تهشُّم الزجاج أفزعني، فارتجف جسدي على طاولة التشريح.. انحنى الطبيب الشرعي وهو يحدق بوجهي: «استرح الآن».

قالها فرقَّ قلبي.. نعم أحتاج إلى الراحة بعد عمر أضعته حين أضعتُ فيه أولوياتي.. أحتاج أن أرتاح الآن، وأنتظرك يا «منى» فأضحك كما كنت أضحك على كلامك.. ترتمين في حضني فيصلح الكون من جديد.

هامش: الموت شنقًا

الشنق هو من أكثر أساليب القتل حيرة للطبيب الشرعي، ومعه تثار الأسئلة التي توجد الإجابات لفكِّ طلاسم الوفاة.

الحبل هو الأداة المستخدمة في الشنق، وهو نفس الأداة التي تُستخدم في الخنق أحيانًا، ولكن الفرق بين الاستخدامين كبير، أول فرق هو اتجاه ذراع القوة المؤثرة على الرقبة في الوفاتين، ففي الشنق تعمل الجاذبية على ذراع قوة مساوٍ لها على الرقبة، فينتج عنها استطالة في الرقبة، يحدث ذلك إذا كان المتوفى شنيق حبل ذي عقدة ثابتة لا يضيق معها الحبل كلما زاد ذراع القوة.. في مثل هذه الحالات لا تكون آثار الحبل ذات استدارة كاملة حول العنق، ولأن الوفاة نتاج استطالة الرقبة فإن أول ما يغلق مع الاستطالة ليس الأنبوب الهوائي، ولكن الشرايين المغذية للمخ، هذا هو الخنيق الوحيد الذي يبدو وجهه شاحبًا لانقطاع الدم، وليس أزرقَ لانقطاع الهواء.

قد تسمعهم يتحدثون عن سوء عمل الشخص وازرقاق سحنته، وما يعنيه ذلك من سوء عمله وصعوبة وفاته، ولكن من الأسباب الأساسية للون وجه المتوفى هو آلية الاختناق، وإن كان اتجاه القوة على الرقبة دائريًّا ضاغطًا فينغلق معه الأنبوب الهوائي أو الاتجاه الرأسي الناتج عن ثقل الجسم واستطالة الرقبة، كنتيجة مباشرة لذلك، فتنغلق الأوعية الدموية أولًا.

الحكاية الثالثة

قاتل مأجور

«لا يوجد مكان أكثر حميمية من داخل جسد الإنسان»

تس جيريتسين

(٣)

جميلة أنا.. أم تراني كنت كذلك؟ فأنا الآن ميتة.. أعلم ذلك لأني أذكر الدماء تغطي وجهي الجميل وجسدي المنمق الذي طالما فَتَن وغَوَى.. نعم أنا كنتُ كذلك، كنت أغوي كل من يراني، وكنت أعرف كيف أسعد بذلك، كنت أسعد حتى إنني امتهنتُ الغواية، فمن أجدر بها مني؟

ألمح جسدي الملقى على الأرض غارقًا في بحيرة من الدماء.. ما زلت جميلة حتى وأنا مقتولة، ولكني باهتة شاحبة تكسو جسدي آثار عراك شديد، لا أذكر ما حدث، ولكني أعرف أنه غُدِرَ بي، أنظر حولي والشرطة تطأ المكان من أقصاه إلى أقصاه، بيتي جميل واجهاته زجاجية يطل على مدينة شاهقة البناء، يبدو البيت أنيقًا كل ما فيه ثمين، وأنا في وسطه قطعة ثمينة أخرى.. يمتلكها من يدفع ثمن مظاهر ثرائها.. تذكرت.. أنا لست فتاة رخيصة، بل على العكس ثمني غالٍ جدًّا.. لا أرافق أي شخص، وإنما أرافق فقط أصحاب الملايين.. كيف لي أن أحافظ على معيشة رغدة كهذه إن لم أجد من يُغدِق عليَّ.

يبدو أنني قد وجدت ذلك الشخص الميسور، فعيشتي تبدو منمقة مبهرة، ولكنها تبدو غير حقيقية، مزيفة تمامًا مثل زيف عمليات التجميل التي أنجزتها أثناء قضائي لفصول الصيف في لبنان، والبادية على جسدي كما يراها الطبيب الشرعي ويصفها في تقريره.. نعم فأنا عشتُ في زيف، وأموت اليوم في زيف، ويبدو أن مقتلي هو الآخر قضية بها زيف كبير.

أسمع الطبيب الشرعي يملي تقريره: «أنثى طولها ١٧٠ سم ووزنها ٨٢ كيلو»، أشعر بالصدمة! يبدو أنني احتاج إلى خسارة الوزن، ولكن لا أظنه يُجدي الآن، فقد قضيت حياتي كلها أنحت نفسي كتمثال جميل يصلح للعرض في انتظار من يلتقطه، ولا أذكر من التقطه مؤخرًا، ولكن يبدو أن له دخلًا كبيرًا في موتي.

«جروح طعنية وجروح قطعية منها النافذ ومنها السطحي».

يتمتم الطبيب الشرعي.. أتعجب.. ترى من كرهني إلى هذا الحد؟

«جروح رضِّية على الرجلين وأخرى قطعية على ظهر اليدين»، يستمر الطبيب الشرعي..

يبدو أنني كنت أدافع عن نفسي بقوة.. نعم تذكرتُ، كنت أعدو وهو من خلفي ومعه سكين يلمع في الظلام. أتذكر ركله بقدمي بقوة مدافعة عن نفسي، أتذكر كيف رفعتُ ساعدي أمام وجهي لأحمي وجهي المصطنع من نصله.. أتذكر صراخي دون أن يسمعني أحد..

«الحالة الاجتماعية.. متزوجة»، تطيح بي الجملة كالصاعقة.. تومض وتنير وتأتي معها الذكريات؛ فرح كبير في بلدي الحبيبة حمل معه غُصَّة الاستعمار وإحساس الضياع. أذكر شكله الآن؛ شاب وسيم في مثل عمري، أذكر إعجابه بي، وأنا به، ولكن أذكر الجوع وضياع الهدف أيضًا، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي هاجرنا فيه معًا.. أنا لأصبح ممثلةً وهو ليصبح مديرًا لأعمالي.. كل أعمالي!



تغيَّرت علاقتنا منذ ذلك الحين فصرنا وكأننا شركاء عمل، هدفنا واحد والغنيمة مناصفة.

لا أذكر أي مشاعر تجاهه.. وكأن صدري به خواء، لكن الآن يغمرني شعور غير عادي بالشفقة عليه، وأنا أراه مكبَّلًا في أصفاده، مدافعًا عن نفسه، وما نُسِبَ إليه من جريمة «شرف»..

أضحك في سري ضحكةً مكتومةً: «أي شرف هذا الذي يدينه بعد موتي، وهو الذي لم يكن يومًا جزءًا من أي معادلة تحكم حياتنا؟!!» أشفق عليه كثيرًا، ولكن ما أنا بفاعلة وأنا لا أذكر الكثير عن ميتتي.

«تعدد الجروح وتنوعها يبدو وأن القاتل كان يكنُّ الكثير من الغضب تجاهها، كما أنه لا توجد علامات دخول عنوة»، يميل الطبيب الشرعي على مساعده موضحًا..

لِمَ يغضب عليَّ وقد كنا شريكين؟ أذكر دفاعي المستميت عن نفسي، وكيف نجح أحيانًا وأخفق كثيرًا.. أذكر الألم الذي أحرق رأسي وهو يجذب شعري من الخلف ويقطع عنقي.. كنتُ قادرةً على الدفاع حتى تلك اللحظة، ولكن الجروح التي سبقت ذلك كلها على تعددها لم تفتك بي..

تسري ببدني قشعريرة قوية وأنا أتذكر صوت النصل يشقُّ صدري دون أن ينفذ إليه.. تهبط درجة حرارة المشرحة فجأة، فينتبه الطبيب الشرعي فيسرع إليَّ من جديد: «ماذا تُخبئين؟ أنا أستمع».

ينظر إلى صدري العاري والجروح الكامنة به.. يشقُّه بمشرطه

من المنتصف لينظر إلى داخل الصدر..

«انتظر! كل الجروح غير نافذة!».

يقول الطبيب وقد بدأ يفهم سبب توتر جثماني: «ليس شرطًا أن يكون الزوج القاتل، فكل الجروح محاولات للقتل، وليس منها جرح قاتل سوى ما أحدثه قطع العنق.. ولكن الأكيد هنا هو وجود نية مبيَّتة للقتل».

«قاتل مأجور؟».. جاء سؤال المحقق من خلف الغرفة، فيرد الطبيب: «ربما».

تصحو الذكريات كميت بُعِثَ من جديد.. تذكرته، حين طرق الباب عرفته: حارس أحد مُرِيدِيّ، دخل خلفي وهددني.. كان يريد عقود شركة وتنازُل مُوقَّع لا أذكر لمن، لكنه لم يرحمني حتى بعدما سلَّمْتُه إياه.. كان عاقد العزم على إتمام المهمة بأوامر كأوامر الجيش.. وكنت أنا الهدف.. تذكرتُ الأوراق في حوزتي. تذكرتُ دورًا إضافيًّا كنت أقوم به بهدف الربح.. تذكرتُ وأنا أقوم بدور وساطة بين أصحاب المال والنفوذ.. كان وجهي المكسو بالمساحيق واجهة لأكثر مما يبدو عليه، ووقعت في دائرة صراع النفوذ والمال، لكني الآن، وبعد أن تم التنكيل بي، فيما يبدو وكأنه رسالة فرض نفوذ، فأنا لم أعد في تلك الدائرة، ولا أعلم إن كان من سيدفع ثمن موتي سيكون حقًّا قاتلي.. لكني أعلم أنها حرب ليس لي فيها طائل، وأنني الآن في أمان من ظلم ظلمت به نفسي، وقهر قهرني به الزمان، وأعلم أني لم أنجُ وحدي، لكنني نجوت مع من خرج معي من بلدي طالبًا النجاة.. الآن أستطيع

أن أنام، وأن أعتق هذا الجسد الذي أنهكته، وأنهكَته الحياة.

هامش: الجروح الدفاعية

هي مجموعة من الجروح المتفرقة التي يصاب بها المجني عليه، جراء دفاعه عن نفسه، قبل أن يتمكن الجاني من إحداث الإصابة التي أودت بحياته.

هذه الجروح عادةً جروح متعددة تصيب في أغلب الأحيان الكفَّيْن والذراعَيْن.

وجود جروح متعددة متفرقة دليل على وجود جانٍ، ودليل على أن المجني عليه كان واعيًا وقت إحداث الإصابة، الطب الشرعي علم ذكي يستخلص المعلومات ويبني التصور من أصغر الظواهر الموجودة في الجثة، ويصبح دور الطبيب الشرعي هنا إيجاد الاتصال السببي بين الإصابة والوفاة؛ لكي يُجزم بسبب الوفاة، ويلصق المسؤولية الجنائية بالجاني.

هناك نوع آخر من الجروح المتعددة، وهي الجروح الترددية، والتي تحدث مع حالات الإصابة الذاتية ومنها الانتحار، هذه الجروح تكون نتاج تردُّد القتيل في إيذاء ذاته، وما يمر به من توترات نفسية قبل الإقدام الفعلي على إيذاء نفسه، وبالتالي تكون هذه الجروح شبيهةً بالجرح الذي أودي بحياته، ولكن أقل إيذاءً فلا تكون عميقة أو قاتلة أو نافذة.

ذلك على عكس الجروح الدفاعية، والتي يتعدد شكلها ومكانها بحسب تصوُّر الحادث.

الحكاية الرابعة

ومن الشغف ما قتل

«أشعر بأن الهياكل العظمية في معملي لديها حكاياتٍ لتبوح بها، ويعتمدون عليّ لسماع بكائهم الصامت وهمساتهم وترجمتها للأحياء»

ويليام مابلز



(٤)

ثم كانت تلك الليلة التي رأيتُ فيها ظلك قبل أن تغفو عيوني..

كانت تلك اللحظات وما تبعها كفيلة بأن تعصف باستقرار ادّعيْتُهُ وتدثرتُ بهيئته لأشهر مضت.

لحظات من الأمل اليئوس أطاحت بسقفٍ استظللتُ به منذ حادثتني على الهاتف تودِّعُني مطمْئِنًا: «إن هي إلا أيام وأعود».

وها هو الآن ظلك تفيق له كل الظنون.

ودون إنذار مسبق يفتح الباب على مصراعيه.. نعم هو ذاك الباب الذي اجتهدنا أن نُغلقه معًا.. حين تعاهدنا ألا نَدَعَ حياتنا تضيع فيما أسميته وهمًا.. يومها أغلقنا الباب، ورحلنا عنه على صوت المزلاج يعشق به، وكأنه لن يُفتح ثانيةً أبدًا.. أتذكر ذاك اليوم حين احتضنت يدك وأنت تقودني بعيدًا مخلفين إياه وراءنا ومن ورائه أسئلة كثيرة.. أصغرها يفسد ما يصنعه الحضن من أمان وسكن..

هل تحبني حقًّا؟

لماذا تحبني؟

لِمَ أنا؟

هل ستفرقنا الأيام؟

لا مزلاج اليوم ولا عهود تكفي لأن تبقيه موصدًا، وها هو الآن يُفتح من جديد على صوت خطواتك الحذرة، وأنت

تتلصص في غرفة نومي وأنا بين حياة الوجد وموت الشوق..

ظننتَنِي نائمةً حين مددتَ يدك تفتح الخزنة في حذر، وصوت أنفاسك يغلب صوت الكروان الذي قرَّر أن يشدو ولم يبزُغ النور بعدُ.. أتى صوت غنائه من ذات النافذة المفتوحة التي دخلتَ منها أنت منذ دقائق ماضية.. في هدوء وكأنك حُلم..

هدوء شارك فيه حتى كلاب الحراسة بالحديقة الذين استقبلوا رائحتك التي ألفوها دون اكتراث ودون نباح..

نعم هو بيتك الذي طالما دخلتَه من الباب دخول الفاتح، تدخله اليوم ككابوس.. كابوس لا يضاهيه فزعًا إلا بريق عينيك في ظلام الغرفة الدامس، ولمعتهما التي استجابت لنور القمر المتسرب من النافذة المفتوحة..

لكن اليوم عيناك ليستا حانيتين كما كنت أراهما في أحلامي ويقظتي..

عيناك تلمعان في اشترار حذِر وفزع زاد حين رأيت عيني فاغرتين تُحَدّقان بك، وأنت تُحكم قبضتك على رقبتي بكلتا يديك وإبهاماك يتجاوران تحت ذقني، وأنت تستعدُّ لتضغط وتُفرغ من أحشائي الحياة.

سيعرفونك صدِّقني وسيأتون بك مكبلًا رغم كل حذرك..

أستلقي في هدوء على طاولة التشريح، فقد سلَّمتُ منذ زمن بعيد، وألقيت عني كل دفاعاتي حين انخرطت كالبلهاء في حب أعمى بصيرتي، أستسلم الآن تحت مشرط الطبيب الشرعي



كاستسلامي لكل كذبك وخياناتك، ولكنه أرحم بي منك: «سلام عليك سيدتي أنا بجانبك وسنأتي بالعدل معًا».. يهمس الطبيب الشاب بأذني وهو يفحص أظافري.

«قتلتِ وأنتِ تدافعين عن نفسك كأسد وقع في الشِباك»، يتمتم الطبيب وهو يحزّز بقايا الجلد من تحت أظافري.

«فلنأخذ العينة لنطابق الحمض النووي بالزوج، فقد وجدنا جرحًا على صدغه في المعاينة.

أعلم أن ضميرك أماته الحب لغيري، وأعمتك الرغبة المجنونة في أن تكون حُرًّا تعيش قصة حب، قلتَ لنفسك أن بها سيعاد شبابك.

احتضنتَها حين كنت أتعذب وأحتاج أن تضمني، قبلتَها كثيرًا وشفتاي ظامئتان لك.. عفوًا.. ظننتَني كما اعتدتَ أن تُسمّيَني «توأم روحك».. الآن ما أنا إلا عقبة في طريق نزوتك.. تلك النزوة التي ستصحو منها بين جدران السجن؛ لتسأل نفسك إن كانت حقًّا تستحق..

ستذكر في تلك اللحظات أنك حين ادَّعيت السفر وتركتَني أتحرَّق شوقًا لك.. كنتَ بين أحضانها تُخطِّط كيف تتخلص من ذاك الطوق الموصد بإحكام حول رقبتك.. تلك الزوجة التي رغم جمالها ومالها وعزوتها لم تعد تثير بك الحماسة عند اللقاء.. تلك الزوجة التي فترت رغبتك بها حين ضمنت حبها غير المشروط لك.. عفوًا لا أريد أن أموت مكبلة بإثم الكذب.. فحبي لك مات لحظة جحظت عيناي احتقانًا تحت وطأة الاختناق.. حين تفجَّرت شعيرات الدم تحت جلدي وخلف جفوني وفي الحشايا..

لحظتها كرهتُ كل لحظة احتضنتك فيها، وكل اختلاج جمعنا في نشوة.

أعتذر منك، لن أتسامح معك بعد اليوم.. لن أدعك تعيش حياة جديدة لأن جسدي الملقي في ذات المكان الذي كان يجمعنا كعاشقين سيتكلم وسيروي كل الحكايات.. ستتحدث الكدمات التي أحدثتها أناملك على رقبتي..

يدوِّن الطبيب الشرعي: «القاتل ذكر أيمن اليد، لأن عمق الكدمات أكبر على الناحية اليسرى من رقبة المجني عليها».

ستتحدث عظام رقبتي وحنجرتي المكسورة إلى الداخل وعضلاتها المتهتكة، لتؤكد أنك استخدمت يديك، ولم تستخدم حبلًا أو وثاقًا لتعتصر مني الروح..

ستقف في المحكمة لتسمع الادِّعَاء يؤكد أنك الفاعل، لأن القاتل كان يعرف الضحية.. يعرفني أنا.. وأن الجريمة جريمة «شغف».. أي وصف مضحك هذا.. حين يوصف القتل بالشغف، لأن القاتل مارس عنفًا شديدًا مباشرًا وكأنه يكنُّ من الكره ما يملأ خزائن..

الكره لي أنا التي لم تقترف خطأً سوى أن أحببتك حتى احترق البصر وماتت البصيرة.. أحببتك حتى لم أعد أرى سوي صورتك التي رسمتها في وجداني، فغابت عني حقيقتك..

لا بأس.. ستندم كثيرًا لا لأنك لم تقتلني بالسم كما حدَّثت نفسك بين جدران حبسك.. بل ستندم حين يلتفُّ حول عنقك

الحبل السميك، ويُطلب منك أن تتوب إلى الله.. وسأكون هناك أختصمك وأدعو ألا تهنأ في نوم ولا في يقظة.. الوداع.

هامش: الخنق باستخدام اليد

من أنواع الخنق الجنائي الخنق على مستوى الرقبة باستخدام اليد ودون وثاق. حين يستخدم الجاني يده للخنق، ودائمًا ما تثار الأسئلة حول علاقته بالمجني عليه. ذلك النوع من القتل يحدث عادةً بين أشخاص كانوا يومًا قريبين تجمعهم علاقة، ولم يكن اللقاء يوم القتل لقاءً عابرًا. حين يستخدم القاتل يده مباشرةً، فإنه بذلك يُعبِّر في أغلب الظن عن صراع نفسي كبير وشحنة عاطفية مكثفة قد تكون حبًّا أو كرهًا.. لكن المؤكد أنه يُعبّر عن تاريخ معاناة يستحضره وقت القتل، ولذلك حين يرى الطبيب الشرعي آثار أصابع على الرقبة فإنه يعلم دون شك أن هذا قتل تابع لفورة عاطفية ما.. وأنه ليجد الجاني فمن الأرجح البحث بين معارف المجني عليه.

ولأن الجاني هنا غالبًا لم يُخطط لجرمه ونادرًا ما يسبقه إصرار أو ترصُّد.. فإن السلاح المستخدم في إحداث الجرم يكون سلاحًا متوفرًا بمسرح الجريمة، ولا يحتاج لإعداد مسبق.

الحكاية الخامسة

ضفائر ملساء

«العلم ليس فلسفة ولا نهجًا دينيًّا، بل العلم أسلوب حياة»

مايكل شيرمر



(٥)

دوي عنيف لا أدري إن كان برأسي أم خارجها..

لا أذكر الكثير الآن.. لكن المؤكد أن الألم لم يكن كما كنت أتخيله وأنا أشاهد الأفلام الأمريكية التي كنت أعشقها..

كنت أخبرها دائمًا بأن هذه هوايتي الوحيدة، أحب زيارة دور العرض ومطالعة الأفلام الجديدة، بينما كانت تغفو على كتفي فور أن تُظلم قاعة العرض.

«كيف تستطيعين النوم وسط كل هذا الضجيج؟!».

كنت أداعبها بعد أن تصحو وتضاء القاعة من جديد.. فتضحك: «تعلم أني أكره العنف في هذه الأفلام، ولا أطيق مشهد الدماء».

ترى كيف قابلتِ مشهد دمائي المتطايرة لتصيب الجدار على يساري؟ كيف وجدتِ مشهد بقعة الدماء ومِن حولها رذاذ متطاير وكأنه لوحة لفنان سريالي؟ تلك اللوحة التي ستعاينها الأدلة الجنائية، وتستنتج منها المسافة التي كنت أقف عليها قبل أن أسقط مرديًّا.

هل وقفتِ تشاهدين خيط الدم وهو يسيل من وسط هذه اللوحة متجهًا إلى الأرض في بطء وكأنه ذاهب إلى العدم؟ أم تراكِ خبَّأتِ وجهكِ كالطفل بين كفيكِ تستجدين الخلاص؟

لا أظن الخلاص سيأتي اليوم من ظلام تختبئين به، فما عدتُ هنا لأقبّل رأسك وأخبركِ أن كل شيء سيكون بخير.. وأني لن

أدع أحدًا يمسّك بسوء وأدلِّلك كما اعتدتُ أن أفعل منذ تزوجنا قبل ثلاث سنوات.

وقفت يومها أناطح نظرات ابني الحانقة عليَّ واتهاماته الصامتة أني وأنا في السبعين من عمري قد جُنِنْتُ وأنا أتزوج من حسناء ثلاثينية لم يسبق لها الزواج..

كنتِ جميلة نعم، ولكن أبهرني منك الحنان والنعومة أكثر من جدائلك الكستنائية التي تحتضن وجهك الأبيض المرصَّع بالنَّمَش.. كنتِ تبدين خجولةً كطفلة في الثانية عشرة من عمرها.. عشقتكِ عشقًا عصف بالمنطق، وسدَّ أذني عما يقولون.. وماذا يعنيني إن كنتِ طامعةً في مالي.. لم أكن أبالي، فلديّ مشاعر كثيرة تريد أن تحتضنك فتجعل منك أميرة في منزلي.

اخترق رأسي مقذوف واحد خرج من فوهة مسدسي الثقيل الذي لم يكن يفارق درج مكتبي.. ضغطة واحدة واثقة خرج على إثرها ذلك المقذوف اللعين يشقّ الجو في حركة حلزونية، وكأنه في مهمة قومية مسارعًا نحو صدغي الأيمن.. ومن ورائه لهب وغازات رأيتها جميعًا في صورة بدت وكأن الزمن لا يمر.. ولكن الزمن في حقيقته يعدو ولا يُبقي شيئًا على حاله.. من يُصدِّق يا مُدَلَّلَتي أن العمر مرَّ سريعًا، وانقضت السنون، وصار لي ابن في الأربعين من عمره حانق كالثور الهائج.. لا يهمه مني سوى ميراث استعجله وكأنه لا يطيق أن يراني ولا أزال تدب فيَّ الحياة.. ماذا فعلتُ لأجني منه كل هذا الكره.

بكَتْه روحي كثيرًا وهو يقف مدافعًا عن نفسه: «لم أقتل أبي!

تعاركنا نعم، لكني لم أقتله».

لِمَ لا أستطيع أن أبادلكَ الكره غضبًا؟ لِمَ أقف الآن من عالم آخر، كل ما أريده هو احتضانُكَ..

ولكن الحضن الآن لا يقلُّ استحالة عما كان عليه في حياتي..

أنتَ بعيد وبُعدك يرهقني الآن كما كان يرهقني طوال السنوات العشر السابقة لقتلي.. ماذا أفعل في قلب أب لا يستطيع أن يرى ابنه خلف القضبان؟

سيقولون إنك قتلتَ أباك خشية الفقر.. وأن رسالة الانتحار الملقاة على مكتبي غير حقيقية.. سيطلبون مضاهاتها بواسطة خبير خطوط، ولن يستطيعوا الجزم، ولكني حين يعاينون جثماني سأصرخ؛ ليسمعني المُشرِّح، سأقوده لينظر إلى فتحة دخول المقذوف.. تلك الدائرة الصغيرة ذات الاستدارة المتساوية قليلة النزف.. أرأيت؟ لا علامات دخول غازات ولا عدم اتساق ولا علامات قرب.. أرأيت.. سيبتسم الطبيب الشرعي وهو يكتب حالتي «قتل».. رغم أن القاتل حاول أن تبدو غير ذلك.. آسف حبيبي لم أكن أعرف أنني حين صحت: «أنا قتيل» تحت مشرط الطبيب الشرعي لم أكن أعلم أنك ستكون أول المتهمين..

يغزو المقذوف أنسجة مخي ومِن حوله موجة طاقة تباعد بين أنسجتي، وكأنها رقصة إيقاعية.. تحدث من حولها إشارات كثيرة، وكأنها صواريخ احتفال تضيء السماء فتباغتني الذكريات.. كل الذكريات.



أعرف أنك منذ ماتت أمك لم تعد قادرًا على رؤيتي.. كنتَ شديد الارتباط بها، وأنا لم أكن يومًا صديقًا لك أو قريبًا منك.. لكني لم أكن أحب أحدًا أكثر منك..

أراك في ذكرياتي غاضبًا.. فأنا ابني ليس طامعًا كما يقول عنه الناس، لكن الغضب أعماه.. هل قادك غضبك إلى قتل أبيك؟

يخترق المقذوف الناحية اليمنى من أم رأسي، فيُحدث تهشمًا شديدًا وهو يسارع أن يخرج قبل أن يفقد طاقته.. ليستقر في سقف الغرفة إلى يساري.. فأسقط في بحر من الدماء.. ستبكي مدلَّلَتي في حرقة، وستحكي عن ابني الذي كان يكرهني كثيرًا.. وأنهم رأوك يا حبيبي تدخل البيت وسمعوا صوت احتدادنا على بعضنا.

ستأتي مدلَّلَتي بتذكرة دار عرض فيلم جديد، وتقول إنها قضت أربع ساعات في الفيلم.. مهلًا.. منذ متى يا مدلَّلَتي تشاهدين الأفلام؟!

«انتظر».. أصيح وقد احتبس صوتي بعد الممات.. أي خديعة تلك التي أودت بحياتي.. تتصلب عضلاتي.. لا أدري أتصلُّبُ الموت هذا أم إنني أحاول النهوض.. طاقة الغرفة كلها غاضبة.. يشعر بها الطبيب الشرعي.. أسمع صوته مهدهدًا: «لا تخف لن يضيع حقك».

ترتاح عضلاتي من جديد، لا أدري إن كان اطمئنانًا أم تغيُّر ما بعد الوفاة، ولكن الآن رأسي يرتاح قليلًا تحت أصابعه..

«أنظر إلى جرح الخروج سيدي كم يرتفع عن فتحة الدخول.. ارسم خطًا بينهما».

أهدأ قليلًا، فأنا أب، ولن أترك ابني خلف القضبان قهرًا.. أهدأ حين أسمع الطبيب يردد.. «القاتل امرأة قصيرة، واتجاه المقذوف من أسفل لأعلى».

ترتاح روحي كثيرًا ويداكِ الصغيرة ترتجفان في أصفادها.. كم كنتُ غبيًّا حين خدعتني الضفائر الملساء.. انكشف الآن عني غطائي، ولا خداع بصريًّا يستطيع أن يُخفي عني حقيقتك.. وعزائي أنني وإن عشتُ عنك غافلًا، فلم آخذ غفلتي إلى القبر.

هامش: دراسة بقع الدماء

علم دراسة بقع الدماء الموجودة في مسرح الجريمة هو علم كبير ومتشعب، ولخبراء هذا النوع من العلم المقدرة على تحديد المسافة التقريبية التي عبرتها نقطة الدماء قبل الارتطام بالجسم الذي وُجِدَت عليه، وذلك من حجم وشكل بقعة الدماء، البقعة كبيرة الحجم كما في القصة، تدل على القرب بين المتوفى والحائط حيث وُجِدَت. يمكن للخبراء أيضًا تأكيد اتجاه الجرح المتسبب في النزف من قراءة شكل بقعة الدماء.

الاتجاه والمسافة وكثير من المعلومات يمكن استنتاجها بدراسة هذا الدليل، بالإضافة إلى نوع الآلة المستخدمة، وفي أحيان كثيرة ملابسات الوفاة.

الطب الشرعي هو علم فك طلاسم وإشارات لا يقرأها إلا

الطبيب الشرعي.. وبقراءتها يمكنه إيجاد لغة تواصل جديدة تُمكِّنه من زيادة أعداد الشهود على الواقعة. الدماء في مسرح الجريمة ما هي إلا شاهد صامت على وقعة عنيفة يحتاج فقط أن يجد من يستنطقه.



الحكاية السادسة

أخبروا أبي

«لا يوجد عشق يساوي العشق الذي تعيشه وأنت تُغيِّر قناعات أحدهم»

هربرت جورج ويلز



(٦)

«بالطبع لا لستُ خائفًا.. أنا لا أخاف».

هذا آخر ما أتذكَّر قوله وأنا أجلس خلف المقود أحتضنه بافتقاد الحبيب الغائب.. كم أعشق تلك السيارة؛ أحبها لأنها كانت هدية أبي لي يوم بلغت الثامنة عشرة من عمري..

أذكر ذلك اليوم جيدًا، كنت فرحًا منتشيًا فالسيارة أجمل من سيارات كل أصدقائي، ويعود تاريخ صنعها لنفس العام الحالي، بالإضافة إلى أنني لطالما حلمتُ بهذا النوع من السيارات وتمنيته، أنا عاشق للسيارات منذ كنت في المدرسة، حتى إني كنت دائمًا أمزح أني أريد أن أصبح سائقًا حين أكبر، لا أذكر اسمي، ولكني أذكر جيدًا شعور الزهو الذي عشته كل يوم وأنا أفتح السيارة بمجرد لمس الباب، وبالشاشات المضيئة التي كنت أطالعها وأنا جالس خلف المقود، أذكر كلمات أبي لي: كفى قيادةً وتجوالًا لا طائل منه، فكلما زاد وقت بقائك على الطريق زادت احتمالية وجودك وسط الحوادث ومفارقات الطرق، كنت أضحك على المنطق، وكنت أردُّ: «أنا قائد ماهر.. والحوادث للمغفلين»، لكنه ردٌّ لم يكن يشفي قلق أبي الدائم الذي لم أفهم له سببًا يومًا.

أرى جسدي المُهشَّم على طاولة التشريح وأتعجب.. لا أشعر بأني ميت، ولكن هذا الجسد يبدو بلا حياة.. شاحبة عيناه مشبحة تُكدرها سحابة، يبدو وكأني متُّ منذ ساعات. لا أتذكر في الحقيقة، وكأني أشاهد أجزاء من فيلم غير مكتمل. أراني وقد جلستُ إلى جوار من أحب.. مشروع زواج لن يكتمل.. كانت

تجلس إلى جانبي في السيارة حين شاهدت ابتسامتها آخر مرة.. جميلة هي.. شعرها بسواد الليل ونعومة وحنان القط الفارسي.

ترى أين هي الآن؟ وكيف هي؟ وماذا حدث لها؟ تنتابني قشعريرة وتجتاح جسدي مع صورتها التي لا تفارق خيالي.. أخشي أن أنظر إلى طاولة التشريح الأخرى؛ خوفًا من أن أجد جثمانها ملقىً عليها.. هل ماتت؟ كيف سأقابل ربي ويدي مخضبة بدمائها؟ آخر كلماتها ما زالت تصدو بعقلي: «تمهَّل!»، ولكني لم أتمهل، ربما أخذتني عِزّة نفسي فانطلقت أسابق ذلك المستفز الذي طالما نافسني على محور اهتمام الجميع.

أنا لم أكن أبدًا في حاجة لأن أثبت شيئًا لأحد، ولكنه كان يستفز فيَّ روح النزال.. فكلما رأيته أثيرت حواسي وشحذت أسلحتي وأعلنت الحرب.. لا أدري لِمَ كان له هذا التأثير عليَّ، ولكن في كل مرة أراه وكأني أرتدُّ إلى الرابعة عشرة، وتحكمني فورانات شارب ولحية لم يكتمل نموهما بعدُ.

كان أسلوبه ساخرًا مستفزًا يسخر من كل شيء.. لكن لم كان ذلك يثيرني إلى هذا الحد؟ لا أعلم.

أرفع عينيَّ بحذر إلى طاولة التشريح البعيدة، وقلبي يكاد يكسر أضلعي.. جسدها ليس هناك.. ولكن يوجد جسد آخر لطفل لم يتجاوز الرابعة.. يسطع قلبي فزعًا، أشعر وكأني أسمع صوت ارتطامه بأرض دار التشريح الصلبة.. «مَن هذا؟!!! هل قتلتُه؟؟».

أتذكر صوت الارتطام وبقايا أخشاب متطايرة حولي على أثر تحطم كشك خشبي في الجزيرة في وسط الطريق. أذكر المقود

تحت يدي وقد فقدتُ السيطرة عليه يدور في جنون يمينًا ويسارًا، والسيارة تعوم معه دون أدنى تحكُّم مني.. أذكر ذلك كله وكأنه شريط سينما لفيلم صامت ولا ألوان فيه سوى لون الدم الذي اجتاح المشهد، ورأسي يُهشِّم الزجاج إلى يساري.. وينتهي الفيلم بضباب كثيف وصمت، وجسدي يترنَّح ويتطاير داخل السيارة التي باتت لا تخضع لقانون الجاذبية، ضباب وسكون لم يقطعه سوى صوت عظام ساقي اليمنى تتكسر، وتبعتها عظام رقبتي، ثم سكون من جديد.

لا أذكر طفلًا أبدًا، ولا أدري كيف أصبح جزءًا من هذا المشهد العبثي..

«توفي جراء الدهس وتهتك أعضائه الداخلية».

سمعت الطبيب الشرعي يتكلم عن الطفل.. إذن لقد صدمتُه!!! لا أدري أي دعوة أصابتني فآل بي الحال إلى هنا.. تذكرتُ دعوات أمي لي: «ربنا يسترك دنيا وآخرة».. ربي أسألك من دعاء أمي نصيبًا من الستر.

«يبدو أن السائق كان يسابق بالسيارة حين فقد السيطرة وحدث ما حدث».

جاءت كلمات الطبيب الشرعي عليَّ كالصاعقة، أذكر أن ذلك الشخص استفزَّني إلى سباق حقًّا.. ولكني لا أذكر أني انخرطت في سباق.. ربما لا أدري.. «سباق أرعن أفقد الطفل حياته».

يا لرعبي وفزعي!



تذكرتُ يد حبيبتي الحانية وهي تربط حزام القيادة، ضحكتُ وسألتها: «هل ستدخلين سباقًا؟؟؟!! لم تربطين الحزام؟» ابتسمت وقالت: «وليتك تربطه أنت الآخر»، ولكني كعادتي، كانت ثقتي في نفسي وقيادتي أكبر من أي نصيحة.. ربما لهذا انتهى بي الحال أُحلّقِ داخل السيارة وكأني عملة فضية منسية.

صوت دموع صامتة وسكون مؤلم يجتاح المشرحة كموجة كسول تغسل الشاطئ في هدوء حين دخلت حبيبتي ودموعها ترطب خدّيها الشاحبين، وكأنها تغسل قلبي من قلق شديد صبغه.

أحمد ربي على سلامتك حبيبتي. وأنك وإن كان الحزن يعتصرك، ولكنك بخير، وهذا يكفيني.

«لا أدري ماذا حدث، ولكن كل شيء حدث في سرعة غير عادية، ألم يجدوا بعدُ سائق النقل؟».

تحدثت بصوت مكلوم مع الطبيب الشرعي.. تذكرت.. كانت هناك سيارة أخرى، وكان السائق شاردًا مغيبًا.. ويجنح على الطريق بشكل كبير.. أذكر جيدًا الآن أنا لم أكن أتسابق إطلاقًا، لم أكن أرعنا ولا مخطئًا.. أتذكر محاولاتي لكبح فرامل السيارة بأقصى قوتي حتى شعرت بساقي يتهشم.. لقد كنتُ واعيًا شديد التركيز.

أخبروا أبي أني لم أكن مستهترًا، ولم أسئ استخدام هديته.. كنت سيئ الحظ. أحاول الصراخ فلا صوت لي، وأنا جثة هامدة، ولكن تسري موجة من التوتر بقاعة التشريح يشعر بها الطبيب الشرعي.. يربت على كتفي: «أسمعك».. يتمتم ثم يبدأ

الفحص الظاهري «ساقي.. انظر إلى ساقي».

أسمعه يملي على المساعد: «كسر مضاعف بالساق اليمني غالبًا جراء الاستخدام المفرط للمكابح».

أرتاح قليلًا رغم الثقل على ضميري، أسمع الطبيب يقرأ المحضر المرفق بأمر النيابة:

«انقلبت السيارة ثلاث مرات بعد اصطدامها بعمود إنارة!!».

إذن متى جاء الطفل تحت عجلاتي؟ تذكرتُ حين فقدتُ التحكم بالسيارة، وشعور الفزع حين كسرت عليَّ سيارة النقل الضخمة، وساقتني إلى جانب الطريق، مرغمًا في بقعة زيت كانت قد انسكبت بالطريق.. أشعر كمن يعيش كابوسًا ولا يستطيع الصراخ:

«اسمعني!!»

أطمئنُّ قليلًا حين أسمع الطبيب الشرعي يقرأ محضر المعاينة: آثار المكابح على الأرض لأكثر من اثني عشر مترًا وبقعة الزيت بالطريق كانت نتاج حظي العَثِر، وطفل ملقىً على الأرض في أقصي يسار الطريق وقد دُهِسَ دهسًا كاملًا.

أسمع الطبيب يملي ملاحظاته حول جثة الطفل: «آثار عجلات ثقيلة على ظهره، وخلف فخذه اليمنى».

لم يُصدَم الطفل.. لو كنتُ صدمته لكان هناك جروح رضّية بمكان الاصطدام بالسيارة وجروح أخرى مكان ارتطامه بالأرض. لا يوجد رضوض سوى رضوض ضغطية واضحة تأخذ

شكل الإطارات.

«يبدو الطفل كأحد أطفال الشوارع.. ويبدو أنه كان نائمًا على الأرض حين دُهِسَ».

موت آخر غيلة تبكي له السماء وأبكيه، ولكن دماءه لم تُلوث يدي، ابتسمت وهدأت أنفاسي: «أخبروا أبي أني شهيد.. أنا لم أقتل أحدًا».

ابتسمتُ لنفسي في فخر.. ما زلت أُحسِنُ القيادة، وما زالت الحوادث للمغفلين.. ورغم أن سيارتي الحبيبة قد صارت حطامًا إلا أنني أرمقها في فخر، فأنا لم تقتلني القيادة كما كانوا يقولون..

وإنما قتلتني بقعة زيت.

هامش: آثار المكابح في حوادث السير

حين يعاين خبير الأدلة الجنائية مسرح حادث سيارة، فإن أول ما يبحث عنه هو آثار المكابح على الأسفلت.

وجود هذه الآثار يعني أن السائق كان متيقظًا، وأنه تيقّن من وجود خطر موشك، وأنه اتخذ ما لزم لمحاولة إيقاف السيارة قبل الارتطام، وجود آثار للفرامل لمسافة اثني عشر مترًا يعني أن السائق لم يكن غافلًا أو نائمًا أو ذاهب العقل.

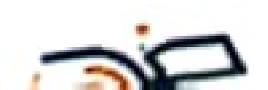
لحوادث السير أسباب عدة؛ وفي كل منها يجب مراقبة مسؤولية السائق أولًا، وبيان العلاقة السببية بين فعله وما نتج عنه من إصابات، وبيان مدى يقظته، وانتباهه عامل هام في بيان هذه المسؤولية.

الحكاية السابعة

مراكب النجاة

«استخدم عينيك، استشعر بأصابعك، جنِّد كل حواسك قبل أن تتخذ أي قرار»

سيدني سميث



(٧)

أهذا أنا؟

لا أستطيع تمييز ملامحي!!! هذا الجسد المتضخم مطموس الملامح كان يوما يربطني به وثاق.. أصبح الآن لا يمكن تمييزه.. وكيف يمكن ذلك وقد كان حبيس مياه البحر لأيام؟ همت فيها على وجهي لا أعرف لي مَرْسَى.. الآن فقط أدركتُ أن أيامي في هذا العالم قد انتهت وأني.. متُّ..

لا أذكر الكثير عن وفاتي، لكني الآن وأنا تحت مشرط الطبيب الشرعي أشعر برغبة شديدة في التذكُّر.. يملأ صدري هواء عطن إثر تآكل أحشائي بالحيوات الكامنة فيها.. لا أستطيع حبس كل هذا الهواء.. أزفر دونًا عني فيخرج الهواء من صدري مختلطًا بماء البحر والمخاط: «لا تفزعوا، إنها فقط غازات التحلل»، أسمع الطبيب الشرعي يُطمئن المرأة الواقفة إلى جوار الثلاجة.. مَن هذه؟ كأني أعرفها، لكن يصعب عليَّ التذكُّر.

وقفَتْ ترتجف وقد احتبست الدموع في عينيها، ويدها على فمها وأنفها، تمنع نفسها من استنشاق الهواء المعبأ برائحة الموت.. تخونها مقاومتها فتفرغ عصارة معدتها على الأرض، وقطرات العرق البارد تبلل رأسها وترفع رأسها لتقول:

«لا أعرف إن كان هذا أخي.. فقد اختفت ملامح وجهه.. وملابسه الممزقة لا تُذكّرني بأي من ملابس أخي».

أدقق النظر فيها.. فعلًا هي أختي الوحيدة التي تصغرني بعامين..

كنت لها أبًا بعد أن رحل عنا عائلُنا، وكانت كل شيء لي بعد أمي.. أمي المسكينة ذات السبعين ربيعًا، والتي أراها بعين عقلي الآن مكلومة وقد لطمتها الحياة من جديد في الابن الوحيد.. السند.. رجلها ورجل البيت.. ذلك اللقب الذي حُزْتُه كميراث أليم منذ كنت في الحادية عشرة من عمري.. لقب لا يُذكّرني سوى بطفولة مبتورة، ولباس عيد لم يأتِ وعيدية لم أمسَّها يومًا.. كنت رجلًا متقزمًا يحمل فوق كتفيه حرمان امرأة ترمَّلت في عز شبابها.. ومستقبل مظلم لطفلة وُلِدَت في فقر، والتحفت قَدَرًا استكثر عليها أي شكل من أشكال الأمان.

تذكرت وجهيهما وصور أعينهما الحزينة تغسل عقلي، وماء البحر يتسرب إلى رئتي ويملأ جوفي.. استسلمتُ لحزنهما وتركته يثقل عقلي، والماء يثقل جسدي، فسقطت وقد تركت حافة المركب في استسلام..

كنت قد تشبثت به ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ.. أسمع صوت صراخ الغرقى من حولي وصوت الماء المختلج بالنفس وأصوات استغاثات تخبو تحت صفحة المتوسط حتى أتى الليل الأول، فاستحالت الاستغاثات لدعاء لا ينقطع، وأرواح تتشبث بخالقها وتوسلات وبكاء.. لا أدري إن كان البكاء خوفًا من الموت أم بكاء قهر من حياة عاشوها في فقر انتهى بهم على سطح مركب في وسط البحر.. ووعود بتغيُّر الحال إن وصل إلى المَرْسَى في أوروبا.. لكنه لن يصل أبدًا..

انقضى الليل وأتى الصباح.. ورأيتُ الأجساد الطافية وقد انتفخت بطونها، وغطَّت الرؤوس فبدت وكأنها بلا رأس..

تملكني الفزع.. إن هي إلا ساعات وتخور قواي ولا أقوى على التمسُّك بالحافة.. ناطحني الموج وكأنه يستعجل النهاية.. «هيا كفى تمسُّكًا بالسراب!! ألم يكفِك تمسُّكًا بسراب عشتَ من أجله العمر كله؟!!!»

حقًّا كنتُ قد أفنيتُ عمري من أجل هجرة ظننت أنها ستنتشلني أنا وحملي الثقيل من تحت وطأة المجهول.. ها أنا الآن في وسط المجهول.

يفزع سمعي صوت صراخ لم ينقطع طوال الليلتين الماضيتين، صراخ شخص يأسف على عمره الذي انقضى ولم يبلغ العشرين.. تذكرتُ صراخ أمي يوم جاءوا بأبي محمولًا على الأعناق من الغيط.. لم تستوِ حياتنا منذ تلك الصرخة أبدًا.. فبعد هذا اليوم لم يعد هناك مدرسة ولا مستقبل ولا أمل.. الذكرى تنهش في قلبي ويذوب جلد كفي وقدمي من أثر الماء فلا أشعر بنهش الأسماك لهما.

لا بأس.. فلأكن جزءًا من كل ما حولي، فليس لي اليوم سوى الفناء..

يخبو الصراخ في استسلام.. لا أدري أأبكيه أم أبارك رحيله.. ما قيمة التمسُّك بحياة لا قيمة لها؟ لم يكن لأي منا قيمة في الحياة.. فلِمَ يكون لنا وزن عند الممات؟؟ أمثالنا «ينْفَق» فلا يبكيه إلا من لم يقتَتْ على جثمانه.

أشعر بإرهاق شديد.. سأستسلم الآن، فلم يعد هناك بكاء ولا دعاء ولا صراخ يؤنسني.. وتملَّك مني العطش وأشعر بجفاف

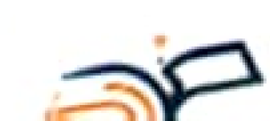
شديد.. البحر حولي مالح يسحب الماء من أنسجتي، فأصاب بالجفاف، وتتصاعد الأملاح وتزيد الهلاوس.

أراني وقد وصلت أوروبا.. وأُستقْبَل استقبال الفاتح بالورود والعملات الذهبية.. أرى أختي في زفاف كبير وفستان أبيض بلون الأمل والحياة.. أرى أمي وقد التحفت بشال حريري بلون البحر وعيناها تضحكان فتتلألأ كنجم الشمال.. أم إن هذا هو حقًّا نجم الشمال يتلألأ في سماء مرصعة بالنجوم.. كل هذه النجوم أتت لتودِّعَني؟

تذكَّرتُ اللحظات الأخيرة، وارتميت على طاولة التشريح أترجَّى الطبيب: كفاني ذبحًا طوال حياتي.. لا أريد أن أذبَح من جديد.. لا شبهة جنائية في موتي إلا ما جناه عليَّ الفقر.. الجروح في يدي وقدمي جروح ما بعد الوفاة، وستعرف ذلك ما أن نظرت بإمعان.. فلا نزف ولا تورُّم.. فقط كائنات البحر وجدت لي منفعةً بعد أن عشتُ عمري كله دون نفع.

أسمع صوت الطبيب الشرعي يسأل عما أمسِك به في يدي.. أتذكرني وقد استسلمتُ للموج.. أتذكَّر الماء يتدفق ليملأ كل فراغات جسدي سريعًا فيُثقلني وأهوي إلى القاع بثقلي.. أتذكر شعور الندم.. «لا أريد أن أموت.. فأنا لم أحيَ بعدُ»، أسارع لأتمسَّك بأي شيء حولي، أفتح يدي وأطبقها في هلع فتطبق على خواء.. وماء.. وعوالق البحر.. أرأيت سيدي يدي فارغة اليوم رغم ما عَلِق بها.. فارغة كما عشت بها.. فارغة.

أليس هذا مشهدًا مضحكًا؟! حتى في موتي لا أملك بيدي سوى



حفنة تراب.

أبتسم في عجز وأنا أودّع دربًا سرت فيه معصوب العينين، ونَفَقتُ في آخره كالدواب.

هامش: جثة الغريق

يتميز جثمان الغريق بوجود رغاوي حول فتحات الفم والأنف، سببها الأساسي وجود الجسد تحت الماء في لحظات الموت الأخيرة، والغريق يصارع لأخذ أنفاسه الأخيرة. نظرًا لوجود مخاط في مجرى التنفس مخلوط بالماء، وما ينتج عن تحلل الجسم من غازات تكون محتبسة داخل جسد المتوفى، وحين تنفذ من فتحة الأنف فإنها تكون تحت ضغط، فينتج عن هذا الاختلاط رغوة لها رائحة نفاذة وتلوُّن مغاير حول هذه الفتحات.

وجود هذه الرغاوي هو أحد أدلة الغرق الحقيقية المؤكدة، والتي تؤكد أن الغريق كان حيًّا لحظة نزوله إلى الماء.. ولأن ملابسات الغرق تختلف عن الإغراق.. فوجود دليل أن الشخص كان حيًّا هو دليل مهم أنه لم يسبق إلقاءه في الماء قتلٌ بأي أسلوب آخر.

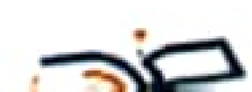
لأن هذا الغاز يكون تحت ضغط كبير، فإن جثمان الغريق يبدو وكأنه يتنفس من أثر هذا الضغط المحتبس داخل تجويفه.

الحكاية الثامنة

حرية حبيسة

«كل من درس العظام يعلم أنها شاهد جيد، فبالرغم من أن أصواتها ليست عالية إلا أنها لا تكذب أبدًا، ومن المحال أن تنسى»

كلايد كولينز



(٨)

«حرية.. حرية»..

تعالت أصواتهم غاضبةً وقد تشنَّجَت كفوفهم وهي تُلوِّح في الهواء.. تنافرت عروقهم، وامتزجت روائح العرق والدخان والدم، فعبّقت المكان حتى صار خانقًا انعدم فيه الهواء.

أفواه تنادي بالحرية، وعيون تشعُّ كذبًا.. يبدو من انكسارها أن أصحابها يصيحون ولا يصدقون.. وكلما كذبوا ارتفع الصياح، وكلما ارتفع سقطت الجثث.. سقطت حيث سقطتُ.. جثة هامدة تطأها أقدام متحمِّسة..

أراني وقد فاضت روحي وسكن جسدي، ولا أعرف بأي ذنب قُتِلْتُ، و لا أعرف بأي حق رفعوني على الأكتاف، وارتفعت فوق رأسي نداءات بالقصاص..

تذكرتُ آخر يوم لي في كلية الطب، كانت هناك هتافات مشابهة بين أبناء دفعتي.. لكنها كانت هتافات فرح.. لا مذاكرة بعد اليوم!

كان ذلك اليوم هو آخر يوم في امتحانات البكالوريوس وأولى خطوات تدريبي بالامتياز.. سأكون طبيبًا.. سأشع نضارةً في البالطو الأبيض، وحين أخلعه سأطويه على ذراعي؛ ليبقى إعلانًا عن هويتي الجديدة، ودعوةً ليناديني الجميع بـ«الدكتور».

ما زلت لا أضيف لعائلتي دخلًا، وما زلت أمدُّ يدي لأبي كل شهر، ولكني أقرب الآن من حلمي وحلمه.. أنا الآن أقرُّ عين

والديَّ وأبعث فيهما الأمل.. أرى الفخر في أعينهما كل صباح، وأنا أحمل البالطو وأسمع نبرة الأمل في صوت أمي، وهي تجهر بالدعاء لي وكأني جرَّاح مُقْدِم على عملية جراحية معقدة.. آه لو كانت تعلم أني سأقضي عامي هذا أقوم بتوصيل العينات إلى المعامل.. فهذا دور طبيب الامتياز في جامعتنا.. كنت أكره هذا، وأغضب كثيرًا وأعترض كل يوم على ضياع وقتي الثمين.. ألم يكن أجدر بي أن أقضي هذا الوقت في التدرُّب لأصبح طبيبًا أفضل.. لكن لا أحد يسمع شكواي ولا شكوى أصدقائي.. ربما لهذا أجبتُ دعوة أصدقائي حين قادوني لشارع في وسط البلد؛ لأقف وسط أول مظاهرة لي في حياتي.. امتلأ رأسي بدوافع وأسباب.. وكلما ازدحم رأسي شعرت بقلبي فارغًا لا شعور فيه ولا خوف.. ومع فراغ القلب لا يرى الإنسان توابع أفعاله.. فانجرفتُ وسط الجموع أنادي على حرية لا أفهم معناها.

ولا أدري إن كانت تستحقُّ الثمن الذي دفعته فيها.. حياتي..

أسمع صوت الطبيب الشرعي.. حالة طلق ناري ثانية!!!

نعم تذكرتُ المقذوف يخترق تجويف جسدي، مُحْدِثًا من حوله موجة عنيفة فتَّتت أحشائي قبل أن يمتلئ جسدي بنزف هائل خارت معه قواي.. أذكر قلبي وهو يصارع ليضخَّ ما بقي من دمائي ومعها الحياة إلى مراكز مخي المهمة في استماتة، قبل أن تخور قواه ويعلن الفشل.. فشل كما فشلت أن أفهم المغزى من وقوفي وسط الغاضبين نتحدى عساكر الحراسة المصطفِّين كالدرع فوق سطح مبنى حكومي.. أذكُر الخوف في عيونهم والضياع وعدم الفهم، وأذكر أيضًا السؤال الذي اجتاحني قبل المقذوف: من قال

إن هؤلاء أعداء؟

«بيان الصفة التشريحية وبيان مسافة واتجاه الإطلاق ونوع المقذوف»، جاء ذلك في أمر النيابة، وأنا أستعد لأناجي الطبيب الشرعي.. يبدو أنه يستمع جيدًا، ولكني لا أعلم ماذا أقول له.. لا أذكر الكثير، لا أذكر سوى أني كنت أعزل.. لم أهدد أحدًا.. لم أبدأ بالعنف.. كنت فقط أطالب بحريتي.. ممن لا يملك أن يعطيها.. لكني لم أكن جائرًا.. كما أني لم أكن بطلًا أيضًا.. فلِمَ أرى صورتي تملأ الصحف والجدران؟ لم أكن القتيل الوحيد في ذلك اليوم.. فلِمَ لا أرى غير صورتي واسمي وكأني رمز وطني مهم.. أنا لم أفعل سوى أني قُتِلْتُ.. فصرت دليلًا على البلطجة والجور والظلم..

نعم كيف استطاعوا قتلي وأنا في مقتبل العمر أعزل..

«هناك فتحة دخول وخروج، لقد اخترقه المقذوف»، قال الطبيب وهو يعاين فوارغ الإطلاق المُحَرَّزة من موقع الجريمة.. ما هذا؟!!!

أخذ الطبيب الشرعي خطوتين إلى الوراء، وقد ابتلَّ جبينه بعَرَق بارد:

«ماذا بك؟» صحتُ فيه دون صوت..

نظر إليَّ الطبيب مواسيًا، ربت على كتفي، واستمرَّ يُملي ملاحظاته: «ثلاث فوارغ محرزة من محيط الجثة من سلاح ناري محلي الصنع».



همس الطبيب في أذني: «تراك خُدِعْتَ.. الفارغ دائمًا يسقط إلى جانب السلاح.. هل كان السلاح بين الحشود؟ لو كان القاتل من عساكر الأمن الواقفين فوق سطح المبنى.. لماذا حُرِّزَت الفوارغ من محيط الجثة؟!!»

تذكرتُ!! كانت عيني معلقة بسطح المبني أتطلع إلى العساكر، وأتعجب من الفزع الذي يشعرون به.. أذكر أني شعرتُ بالشفقة عليهم، فهم خائفون تمامًا مثلنا جميعًا.. كدت أستدير وأترك الحشد حين شعرتُ بشيء ملتهب يخترق ظهري.. جاءت الطلقة من الخلف..

توتَّر جسدي تحت وطأة الخديعة.. «اهدأ يا صديقي.. أعلم أنك تريد البوح، لكننا نحتاج لدليل قوي.. استكِنْ حتى أرى فتحة الدخول».

بدأ الطبيب الشرعي في فحص ذلك الجرح في أعلى صدري.. لا يبدو عليه أي علامات قرب إطلاق.. «مهلًا.. مهلًا» صحتُ بأعلى صوتي.. ولكن دون جدوى.. أذكر جيدًا المقذوف وقد اخترقني من الخلف، وليس من أعلى الصدر.. انظر جيدًا.

أشعر بعينيه تخترقان ظهري وهو يفحص الجرح الآخر.. وأشعر بأنفاسه تحتبس.. «أيُعقل هذا؟ ما هذا التلوُّن الصبغي الموجود حول الجرح؟ هو إحدى علامات قرب الإطلاق.. فجُرح الدخول هو ذاك الجرح الغائر في أسفل ظهره».

تذكرتُ إحساس المقذوف وهو ينخر في جسدي في حركات دائرية قبل أن يخترق أعلى صدري مغادرًا جسدًا ميتًا.. شخصت

عيوني وأنا أرى الكون يختفي خلف ستار من الدموع.. دموع أذرفها اليوم على حياة لم أعشها بعدُ.. وعلى ممات جاءني غيلةً وعلى قاتل حملني بعدها على الأعناق وتاجَرَ بموتي.. أريد حقي! سقطت دموعي على طاولة التشريح.. «لا تبكِ يا صديقي، وأفصح عما يخفيه جسدك»، همس الطبيب الشرعي في رفق وهو يرسم خطًّا وهميًّا بين فتحتي الدخول والخروج، ويمد الخط في اتجاه فتحة الدخول.. هنا وقف قاتلك.. كم كان قريبًا منك..

تذكرتُ في لحظات، وكأنني أرى شريط أحداث يمر أمام عيني..

من أول يوم قابلني أحد المعارف.. كيف أقنعني بأني مظلوم؟ كيف أقنعني بأن أكون وسط الحشود؟ كيف وقف إلى خلفي وأخرج من جيبه سلاحًا محلي الصنع وأطلق النار دون أن يراه أحد؟ سقطتُ وفي الزحام تضيع التفاصيل.. وحين بدأوا في الصياح ضد القتلة البلطجية.. أطلق الجميع الحكم ونصبوا المقصلة وضاع حقي. سأختصمكم جميعًا أمام ربي.. مَن قتل ومَن تاجَرَ ومَن بخسني حق الابتسام وأنا على مطلع الطريق.

هامش: علامات قرب الطلق الناري

يتعرف الطبيب الشرعي على الطلق الناري عن قرب من خلال مجموعة من علامات القرب التي تُميِّز جرح دخول المقذوف؛ من ضمن هذه العلامات ما يحدثه البارود من ترسبات حول مدخل المقذوف إذا كان الإطلاق عن قرب، هذه الترسبات تصيب الملابس والجسم إذا كان عاريًا، ويمكن التخلص منها بغسل

الثياب أو الجلد، ولكن هناك علامة أخرى يصعب التخلص منها بالماء، وهي أثر الجزيئات كبيرة الحجم من البارود، والتي تخترق الطبقات الأولى من الجلد، وتُحدِث تلونًا ثابتًا تمامًا كالوشم، يحدث هذا الوشم كعلامة ودليل على قُرْب الإطلاق. إن وُجِدَت هذه العلامات فإنها تعني أن الإطلاق كان من مسافة لا تزيد على المتر في أقصى الأحوال.

في حالات التجمهر فإن وجود علامات قرب إطلاق تعني أن السلاح المستخدم كان على مسافة قريبة في وسط التجمهر، مما يثير بعض التساؤلات عن الجاني ووجوده وقت الإطلاق.

الحكاية التاسعة

الهروب إلى اللحد

«كل شيء جزء من صورتك الشخصية؛ مذكراتك، تاريخك العلاجي كله يقبع في خصلة شعر، أظافرك، داخل معدتك، التكلسات على يديك تحكي أسرارك، تفضحك، أسنانك، نطقك للغة، التجاعيد حول عينيك وفمك... كل ما تفعله له أثر»

تشاك بلاهنيوك

(٩)

«سأنتقم لنفسي ولسمعتي ولاسمي الذي اجتهدتُ لأبنيه».

هذا هو ما أخبرت به نفسي مرارًا، وهو أيضًا آخِر ما تذكرتُ قوله قبل أن أجد نفسي حبيسة هذا اللحد الضيق.. أكاد أختنق أو ربما أكون قد اختنقت منذ أمد، فأنا هنا منذ سبعة أيام..

لا أستطيع الحراك وأشعر بالتراب الذي أهالوه عليَّ حتى أطبق صدري تمامًا كما كان يحدث من قبل بفعل جدران منزلنا، فأثناء دراستي في الكلية كنت أكره ذلك المكان بجدرانه العطنة بفعل الرطوبة التي أذهبت لونها وجعلت ملمسها خشنًا، كان منزلنا مكونًا من حجرة واحدة كبيرة وحمام ملحق بها يفصله عنها ستار بلاستيكي مُصنّع من مفرش منضدة قديم متهالك.. كنت أختنق في ذلك المكان وكأنه قبر، كُتب عليَّ أن أولد فيه وأترعرع وسط ثمان أخوات، لم أشعر يومًا بأني أنتمي لهذا المكان الشعث، ولا إلى من يقطنونه.. فأنا كنت دومًا أكثر الفتيات جمالًا وأكثر ذكاءً من الجميع.

شعرت حقًّا بأنني بمثابة خسارة كبيرة وخطأ من أخطاء الكون، ولذلك تمحورت حياتي حول سبل الخلاص، كان هدفي الأوحد هو النجاة من هذا الفقر، وذلك المصير المحتوم.. عاهدتُ نفسي لسنوات ألا أكون صورةً من أمي، وألا تكون لحياتي أي صلة بها أو أيًا من أخواتي ما إن استطعت الخلاص.. كم كرهتهم لأن النظر إليهم كان يذكرني بما ضنَّ به عليَّ الزمان، وما اضطررتُ لانتزاعه انتزاعًا.

كبرتُ واكتشفتُ أن الطريق المختصرة كانت تحت قدمي، ولا أحتاج إلا للقليل من الرتوش، وإلى استعارة المحسنات لأصبح كعرائس المولد، وألفت نظر الرجال أصحاب الأعين الفارغة الذين يمرون بأزمات منتصف العمر.

لا أذكر الكثير عنه، ولكن أذكر تلك النظرة الدنيئة في عينيه، معلنةً أنه في انتظار الاختطاف، تلك النظرة التي يضمرها هو وأمثاله من أصحاب المراكز والنفوذ، والتي تفضح نقصًا يُسِرُّونه أو الرغبات التي يعبرون عنها فقط خلف الأبواب المغلقة.. كان هدفًا سهلًا، وقد اخترته فأوقعته في فخ زواج سرّي دون جهد يُذكَر، زواج لم يمرّ عليه الكثير قبل أن أبدأ في الضغط على ضرورة الإعلان عنه، فأنا لم يكن يهمني كثيرًا توسلاته بألا أكون سببًا في هدم بيته وحياة أولاده.

إن يديَّ تتألمان، أتذكر الألم وعدم القدرة على الحركة، والاختناق وقد جعلاني أشعر بأني حبيسة داخل جسد شُلَّت حركته، أتذكر خيال شخصين قابعين حولي في الظلام.. بينما تجتاح جسدي موجة صقيع فأرتجف.. لا أعلم هل أرتجف من الخوف أم من أثر برد الثلاجة التي حفظت رفاتي في المشرحة، ها هو الطبيب الشرعي يقترب مني، وهو يتمتم: «لا تخافي.. أنا هنا»، ثم يعاين شفتيَّ وأظافري وهو يقول:

«تبدو عليها زُرقة الاختناق».

بعدها يملي على أحدهم وهو يشقُّ بمقص ذلك الوثاق الحريري المربوط بإحكام حول عنقي: «أثر ضغط واضح متواصل حول

العنق، وآثار انسكابات دموية داخل العنق، ونزف حبري أعلى منطقة الوثاق».

نعم، فأنا متُّ مختنقةً كما أذكر بعد ألم شديد في رأسي، سقطتُ قبل أن يقبع فوقي ويوثق المنديل الحريري الملون حول عنقي في عقدة ثابتة دون هوادة حتى جحظت عيناي.. تذكرتُ شعور العجز تحت وطأة نقص الأكسجين.. لا أذكر أني دافعت عن نفسي.. وإنما أذكر شعور الفزع وأنا أخطو إلى يقين مفجع، وهو أن حياتي تنتهي، وأنه في تلك اللحظات كان مجردًا من إنسانيته إلى درجة انعدام الحواس.. لم أرَ انعكاسًا لصورتي في عينيه، ولم يبدُ لصرخاتي أي صدىً على مسامعه.

رأيتُه وكأنه تمثال منحوت من كِبْر سُلِبت منه الروح.. كم بدا مختلفًا عن ليالينا معًا، تلك الليالي التي بدا فيها كطفل سرق صندوق الحلوى، كانت له عينان تلمعان ولعاب يكاد أن يسيل كلما اختلى بي، كان ككُلِّ من سبقه سهل الانقياد وسهل الإرضاء، وكنت أنا المسيطرة عليه والمتحكمة في كل شيء.. وها أنا الآن أختبر موقفًا مختلفًا عن موقفي، وهو قابع فوقي يُفرِغ جسدي من الحياة تمامًا.

أعلم أني لربما جلبتُ على نفسي تلك النقمة، ولكن هل يستحق أي إنسان أن يختبر بشاعة مقتلي؟

تفارق عيني دمعة تغسل وجهي المنتفخ من أثر الخنق والتعفن، وأنا أسمع نصّ الاتهام الذي يقرأه الطبيب الشرعي: «قتل خطأ»، ثم تهرُب من صدري صرخة مكتومة، فلا تجد منفذًا



من حنجرتي المهشمة، ولكن يسري صداها في جنبات المشرحة، فتصيب الحضور بصمت غير مفهوم.. لقد اعترف قائلًا إنه كان عراكًا تبادلنا فيه السباب، فضربني وخنقني وهو في فورة غضبه، ولم يكن ينتوي سوى تهديدي.. لم أتذكر بالتحديد، لكنني تذكرتُ تدريجيًا شكل وثاقي والسلسلة الحديدية التي التفَّت حول عنقي وحول خصري، وذلك القفل المغلق المتدلي منها.. تذكرت الوثاق المحكم حول رسغي وكاحلي، وقد شُلَّت حركتي تمامًا، وتذكرتُ أيضًا أنه كان هناك شخص آخر يقوم بإحكام ربطي.

اختلطت الذكريات في صور تندمج دون تآلف.. صور عنيفة تارة ومضحكة تارة أخرى، صور تندمج كقوس قزح مغادرًا السماء، فتبهت الألوان كألوان السماء التي علقت بها عيناي وأنا أستسلم للموت.. تذكرتُ استسلامي رغم أنه لم يكن من شيمي أبدًا أن أستسلم، ولكني كنت موثقةً ومسلسلةً.. ظللتُ أتوتر ويتوتر جسدي بينما يطمئنني الطبيب الشرعي وهو يقطع الوثاق من حول رسغي وكاحلي ويُحرِّزهم وهو يقول: «آثار انضغاط تحت الوثاق وانسكاب دموي حوله.. آثار حيوية».

نعم فقد وثقتُ حيةً وبقيت موثقة حتى ردم عليَّ اللحد.. نعم كان القاتل ورفيقه عاقدَي العزم على قتلي منذ استدرجاني وهوت فوق رأسي العصا الغليظة التي أردتني فاقدةً الوعي، فأقوم لأجدني مكبلةً غير قادرة على الحراك.

«لقد وُثِّقَت لساعات قبل القتل.. لهذا لا أظنه قتلًا خطأً، بل وأظن أن صفة سبق الإصرار قد تحققت»، قال الطبيب مؤكدًا.

أشعر بهدوء يسري في أوصالي، لا أعلم إن كنتُ ضحية أم إني من الجناة، ولكن حياتي لم تكن الحياة الأنفع للناس؛ فقد خرجت من بيت أهلي الرثّ، امتلكتُ المنزل والسيارة وفقدت معهما احترام نفسي.. لكني كما كنت أقول دومًا: «للفقر رائحة عفنة لا يستوي معها أي احترام».

أغادر الآن عالمًا لم أنجح أبدًا في ترويضه، وحين اقتربت من ذلك متُّ.. لكني سأذهب ضاحكةً، فلأول مرة في حياتي لا أشعر بدونية الفقر، وإنما صارت لي قيمة أكبر من قيمتي وأنا حية، فالآن يدفع ثمن قتلي اثنان ظنَّا لوهلة أنهما فوق القانون، وأني قد أُنْفَق ككلاب السكك دون أن يسدد فاتورتي أحد، ولكني وأنا أراه الآن في بدلة حمراء يجرُّ قدميه ندمًا، أتساءل: من منا تفوح منه رائحة الفقر الآن؟

هامش: علامات حيوية الإصابة

على الطبيب الشرعي تحديد ما إذا كانت الإصابة إصابة حيوية إم إنها إصابة أحدثها الجاني أو أحدثتها عوامل طبيعية بعد الوفاة.. ويستطيع الطبيب الشرعي معرفة ذلك من خلال فحص الجرح أيًّا كان نوعه وفحص حوافه، إن وُجِدَ به تورم ونزف وإن كان للجرح مواربة، فإن ذلك من ضمن علامات حيوية الجرح.. وهكذا لا يمكن خداع الطبيب الشرعي إذا كان الجرح قد حدث بفعل الجاني، بينما كان المجني عليه لا يزال على قيد الحياة.. ولكل نوع من الجروح علامات حيوية مختلفة، ولكن أيًّا كان النوع فإن حيوية الجرح شاهد آخر يستحضره الطبيب الشرعي لرسم تصوُّر الجريمة وكشف المستور.

إن وجود أي جرح مفيد للطبيب الشرعي، حتى وإن كان جرحًا غير حيوي، فوجود جرح غير حيوي له معان كثيرة، منها ما يمكن أن نسميه بمحاولة تزييف مسرح الجريمة، والإيحاء للمحقق بأشياء غير حقيقية وصرف انتباهه عن السبب والظروف الحقيقية للوفاة، كما أن وجود مثل هذه الجروح قد يوحي للطبيب الشرعي بمحاولة تشويه الجثة بعد الوفاة إما لطمس ملامحها وإما للانتقام.

في كثير من الأحوال، فإن إصابات ما بعد الوفاة أيضًا من الممكن أن تشير إلى البيئة التي توجد فيها الجثة بعد الوفاة، وما بها من حيوانات ضارية وحشرات.

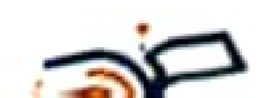
لا توجد إصابة غير مفيدة للطبيب الشرعي، ولكل علامة على الجثمان رسالة.

الحكاية العاشرة

استغاثة أخرس

«أما عني فإن كل يوم لي هو عيد القديسين»

ويليام مابلز



(١٠)

ضجيج شديد وصوت صراخ يُدمي الآذان.. أراهم يهرولون بين السيارات التي وقفت وترجَّل منها سائقوها؛ ليلتفُّوا مع من التفَّ من المارة حول جسدي الملقى على الرصيف، وسط بحر دماء ساخنة لا يزال ينساب كالحمم من جروحي.

لا أدري لِمَ التفَّ الناس حولي الآن، وقد كنتُ منذ دقائقَ أستجير، فلم يُجِرْني منهم أحد.

صراخ وعويل تعالى فوق صوت أفكاري، حتى أُبدِل بصوت سارينة عربة الإسعاف..

«بأي ذنب قُتِلْتُ؟» حاولتُ أن أصرخ، فانحبس الصوت في صدري، وأبَى أن يخرج من حنجرة منحورة مهتَّكة.. فأنا ذبيحة، ولا أدري أي شيطان نحرني، وكأني طير صار طعامًا لكائن أكثر تقدمًا في سلسلة الغذاء.

أعلنت وفاتي في استقبال المستشفى، حيث رَسَت بي سيارة الإسعاف، وتوتر جسدي على طاولة الطبيب الشرعي أنتظر أمرًا.. ألا يكفي ما عانيتهُ؟ أما آن لهذا اليوم الصعب أن ينتهي؟ أريد الرحيل إلى حيث لا ظلم ولا عدوان ولا قهر.. ولكني ما زلت هنا.. أحوم حول جسد أسكته الغدر نخرس.

تذكرتُ حياتي وكأنها فيلم بالسينما كذلك الذي قابلته فيه أول مرة.

كنتُ مع صديقاتي وكان هو يجلس وحيدًا في أحد أركان

صالة العرض، وقد ضمَّ ركبتيه في توتُّر واضح، شُبِّه لي، ولكن لوهلة لم أتذكر أين رأيتُهُ من قبلُ.. كانت ستطول حيرتي لولا أن رأيت اسم جامعتي مطبوعًا على حقيبة ظهره الملقاة على الأرض إلى جانبه.. نعم تذكرته، ليس طالبًا في نفس جامعتي فحسب، بل إنه يشاركني العام الدراسي نفسه. كنت أراه دائمًا وحيدًا يتحرك وحده ويدرس وحده ويأكل وحده.. كان غريب الأطوار قليلًا، ليس فقط لأنه ليس له أصدقاء.. لكن كان هناك شيء حوله يثير الحيرة.. لا أظنني سمعت له صوتًا يومًا، ولا أظنني عرفت له اسمًا. كان لباسه منمقًا دون ذوق، وكأنه ابتاعه في الألفية الماضية، فظهر وكأنه لا ينتمي لهذا الجيل.

تذكرتُ اللحظة التي كانت ستغير حياتي بعدها دون رجوع.. تلك اللحظة التي حدَّثني فيها قلبي وامتلكتني الشفقة به.. وألقيت عليه السلام وأنا وسط صديقاتي.. لو عادت بي الأيام كنت وَأَدْتُ ذلك القلب اللين قبل أن يكتب شهادة وفاتي.

«اثنا عشر طعنة، منها عشرة طعنات نافذة، وجرح قطعي بالرقبة».

جاء تقرير الكشف الظاهري بعد المعاينة المبدئية للطبيب الشرعي..

عجبًا؟ هل احتاج جسدي الهزيل كل هذه الطعنات لتزهق روحي؟ ترى كم منها تحمَّلتُ قبل أن أُسْلِمَ لربي؟ لا أذكر.. كل ما أذكره هو دقات قلبي المتسارعة وأنا أصرخ محاولةً الهرب، وأنينه بين أضلعي وهو ينازع ليضخَّ ما بقي من دمي بعد نزف شديد.. ثم

معاناة عضلته وهي تُسلم الراية أمام نقص الدماء ثم تستكين.

«سبب الوفاة هبوط حاد في الدورة الدموية».

جملة ذيَّلت تقرير الطبيب الشرعي، كما تذيل الكثير من التقارير.. لكن ما لا تراه في كل التقارير هو ما آل إلى وفاتي.. فأنا لم أمُتْ جرَّاء كل الطعنات النافذة، وإنما متُّ نزفا حين قطع وتيني بنصل حاد.

وكأن الزمن توقَّف وأنا أحييه تحيةً كانت من شأنها أن تجرَّ عليَّ وبالًا.. ويومها بدأ يترصدني.. ويومها بدأت نهاية حياتي التي سوف أنتظرها بين خوف وجزع وفزع امتقعت به أيامي، وظل يتزايد إلى أن التهم عمري بالكامل.. لا أدري ماذا كان خطئي.. ولكنني عجزت طوال عامين على التكفير عنه أمام شاب نسج في مخيلته قصصًا لا وجود لها ولا طائل.. ومارس عليَّ كل أنواع الضغط، وكأنه أراد لي أن أجسِّد أوهامه، وفي كل مرة لا أشبع هلاوسه كان يتصاعد غضبه، حتى كانت تلك اللحظة التي صعدت فيها روحي، لتعلن تبرُّؤها من هذا العالم الذي خُضْتُه في خوف لم يحمِني منه أحد.

وقف قاتلي أمام وكيل النيابة في هدوء شديد.. تراه فلا تظن من فرط هدوئه أن الدماء التي تلطخ يديه وملابسه دماء إنسانة.. ولو لم يكن لكدمات وتورمات وجهه على أثر ما أنزله به المارة من عقاب تأخَّر بعد أن كان قد لحق بي ما لحق، لولا تلك الكدمات لظننتُ أنه في أبهى صورة.

تحدَّث في فتور كمن يجري في عروقه ثلج ولم يبْدِ ندمًا، وإنما

استخدم نفس الهدوء الذي خدع به كل من حوله لأعوام ثلاثة، كان يبدو فيهم وكأن كل شيء تحت السيطرة.. لكن الشيء الوحيد الذي كان تحت السيطرة كان هو، وقد سيطرت عليه أفكاره الجامحة التي لم يعلم عنها أحد.. تحكمت به الهواجس والأفكار إلى أن صار كالدمية تعلقت بالأحبال تنتظر حركة من يد سيدها.. فتقتل..

تذكرتُ كم مرة لجأت لأصدقاء ولأهل ومعلمين أشكو خوفي وفزعي.. فقط لأجد من يضحك في تهكُّم.. كيف تخافينه وهو وديع هادئ؟ لم يُصدِّقْني أحد.. لم يقتنع أحد بأني مهددة حقًّا، وأن خوفي صار سيدًا يرسم حياة عبده، فأمتثل.. وأصمت.

«كان القاتل في فورة عاطفية.. لم يكن سبق إصرار وترصُّد.. عشر طعنات نافذة وجُرْم بشع في وضح النهار.. أظن القاتل يحتاج لأن تُختبر قواه العقلية».

هذا ما سمعتُ من الطبيب الشرعي، وانقبض له جوفي.. عادت إليَّ ذكرى فزعة وهو يلاحقني وفي يده سلاح.. بل سلاحان!!! تذكرتُ وميض النصل تحت أشعة الشمس، كان جاهزًا لي، كان في انتظاري، كان مسلحًا وكان ينوي القتل.. صدقوني!

«جرح قطعي بالرقبة أحدثه الجاني، قطع الأوردة والحنجرة بسكين عريض ذي نصل واحد، وُجِدَ في مكان الجريمة، وتم تحريزه».

استمر الطبيب يُملي التقرير.. ماذا حدث للسلاح الآخر؟؟؟ لِمَ لَمْ يُحرَّز؟

توترت على طاولة التشريح، فانقبضت عضلات ذراعي، فرآني الطبيب وأمسك بذراعي: «ماذا تريدين أن تُرِيني؟».

مهلًا مهلًا.. سكنت أوصالي.. أنا في أيدٍ أمينة، فأمنت وأنا أسمعه يعدل مساره: «كان هناك سلاحان.. الطعنات أحدثها سلاح أبيض ذو نصلين.. أرأيت الزاويتين المتقابلتين في كل طعنة».

لا أظن أن لوجودي الآن أهمية.. سأرحل الآن.. ولكن بعد أن أشاهده يتوسَّل يوم القصاص.. سأرحل وأضحك على عالم عجز عن حمايتي؛ لأنه لم يُصدِّقني في حياتي، وقرر أن ينعيني بعد مماتي.

هامش: جرائم الفورة العاطفية (جرائم الشغف)

هي جرائم لها خاصية معينة تكون مصحوبة بفورة مشاعر معقدة، قد تكون حبًّا أو كرهًا أو غيرها من المشاعر التي يصعب التحكم فيها حين تسيطر على الجاني.. يستطيع الطبيب الشرعي استنتاج مثل هذه الحالات من شكل الإصابات وتعدُّدها ومكانها.

لا يعرف القانون هذا النوع من الجرم، ولكنه موصَّف علميًّا في عالم الطب الشرعي، وهو نوع من الجرائم يمكن استقراؤها من نوع وتعدُّد الإصابات وشكلها المتفرد أحيانًا، فمثلًا سلاح واحد يُمكن استخدامه بطريقة عادية، ويُمكن استخدامه بحيث يثير تساؤل الطبيب الشرعي حول ما إذا كان الجاني في فورة عاطفية أثناء ارتكاب الجرم؛ فمثلًا الجرح الطعني النافذ إذا تعدَّد

بحيث يفوق عدد الطعنات ما يتطلبه القتل، وإذا ما كان الطعن غائرًا حتى نهاية النصل بحيث تترك يد السلاح الأبيض أثرًا رضّيًا على الجسم من هول العنف المستخدم، كلها علامات تثير شك الطبيب الشرعي.

لكل طريقة قتل معنى مبطن في نفس القاتل حتى وإن لم يَعِهِ.. ولذلك فإن ترجمة بعض الدلالات الموجودة في مسرح الجريمة قد ترسم صورة للحالة النفسية للجاني.. فالقاتل إن تعامل مع الضحية بفوقية بأن وقف على قدميه، وقام بقطع العنق كمن يقف على أضحية صحَّ الظن في أنه ربما نازعته رغبة الثأر، فهذا قاتل حانق ربما كان حانقًا لدرجة منعته من التخطيط.

القاتل الغاضب لا يبذل الكثير من الجهد ليستر جريمته؛ فهو في غالب الأمر لا يرى سوى ضحيته يصبُّ حولها حنقه.

للتعرف على هذا النوع أكثر يمكنكم متابعة الفيديو

https://fb.watch/lsbG8qMOMg/?mibextid=
NnVzG8

الحكاية الحادية عشر

وكان أبوهما صالحاً

«كل اتصال يترك قرينة»

إدموند لوكارد



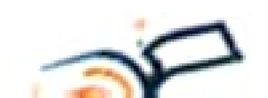
(١١)

طلبتُ منك -ربّي- الستر عمرًا كاملًا، طلبته في دعائي وأورادي، وها أنا ذا تتلقّف جسدي المتخشب أيادٍ غريبةٌ عني، أشعر بأصابعهم وهي ترفع جثماني وسط غبار كثيف وأصوات استغاثات ونفير سيارات لا ينتهي. أتساءل مَن هؤلاء؟ ولِمَ يُحَوِّقلون في شفقة وهم يتجاذبون جسدي المأسور تحت الركام؟

تذكرتُ الآن ذلك الانفجار المدوي الذي انبعث كغضبة سماء في لحظات، قبل أن ألقى هذا المصير.. أما عني فربما أكون قد غادرت هذا الجسد تمامًا، ولهذا فأنا أراه كأني أشاهد مشهدًا حزينًا بطله ساحة حرب لم ينجُ منها أحد، لكن الحقيقة أنها لم تكن ساحة حرب، وإنما دمار توابع الهزة الأرضية الشديدة التي حدثت منذ يومين.

«لا إله إلا الله»

جاءت صيحات الناس الطيبين الذين وقفوا على الأنقاض يستخرجون في جزع ما بقي من آدمية لقاطني العقار رقم اثني عشر بحارتنا في هذا المكان الشعبي الذي عشتُ فيه لأعوام مضت.. أتذكر الآن أيامًا هانئةً عشتها مع زوجي؛ الرجل الذي فاض كرمه على كل من عاشره حتى ولو ضاق به الحال.. كان كريمًا كَرَم الصالحين يجود بما يملك حتى ينفد ولا يبالي يومًا، ولا يحمل حمل مستقبل يجهله، كان يقول لي: «المستقبل وديعة الله يا سَحَر، لِمَ أخشى عليه وهو بين يديه؟»»، هذا بالابتسامة بعد أن فرغت جعبته من كل ما يملك، وصارت الابتسامة هي كل ما



تبقى لديه.

لكنه كان محقًّا، وكان كل يوم يأتينا برزق جديد.. لم نحتَجْ يومًا لأي شيء أو أي أحد، إلا وقد مُنِحْنَاه دون طلبٍ منا.. كانت أيامنا سترًا لا يبلى وكرمًا لا يزول.

أتذكر عينيه وهي تلمع خلف الباب الزجاجي، بينما يجرُّ حقيبته من خلفه في صالة المغادرة، ويُلوِّح بيديه لي ولطفلَيْنا الاثنين وهو على أعتاب رزق جديد هاجر إليه في إحدى الدول العربية.. قبل أن يوصيني قائلًا:

«سأعود بعد عام.. في غيابي أنتِ الوتد والبيت والسكن، أعلم أنك ستحفظين لي «علي» و«عمر» ولن أغيب حبيبتي».

«لا حول ولا قوة إلا بالله».

صاح أحد رجال حارتنا وهو يقول:

«هذه أم عمر».

غطَّى وجهي بورقة من جريدة بالية وأشاح بناظريه عن وجهي وعيني اللتين بحلقتا كمن يشاهد مشهد رعب لا يريد أن ينتهي.

يلاحظ أحد رجال الدفاع المدني جثماني وهم يهمون بالانصراف، بعد أن انتهى البحث عن أجساد هالكة تحت الأنقاض، ثم يقول: «شكل الجثمان غريب، وفي حالة تيبُّس كامل كأنها لم تَمُتْ للتو!! يبدو وكأن هناك شبهة جنائية»، يُشعرني حديثه بتوتر شديد، بينما يغادر جسدي حارتنا في عربة الإسعاف إلى دار التشريح.. وحين أنظر خلفي أرى الشرطة



يحوطون الأنقاض بعلامات مسرح جريمة، وتنصرف العربات التي كانت قد شرعت في رفع الركام.. يخفق قلبي! أشعر كأني أُقتَلَع من جذوري، كأني تركتُ خلفي طنابًا مقطوعًا، فصار قلبي نخيمة ضائعة في مهبِّ الريح.

لا أدري لِمَ أشعر بالضياع وأنا أترك حارتنا، وأنا التي كنت على مشارف تركها والانتقال إلى بيت أفضل على الشارع العمومي.. كان الجيران يشهدون أعمال النقل، وكنت أرى في أعين بعضهم نظرات الغبطة، وفي أعين القليل منهم نظرات الحسد، ومن بينهم جارتي الأقرب إلى بابي أم أحمد، والتي كنت أتلافى نظراتها في الجيئة والروحة، وأحدِّث زوجي عنها كثيرًا:

«إنني أخاف الشرر في عينيها».

بينما كان يردُّ في هدوء:

«أشفقي عليها يا أم عمر، فالمرأة عاقر لم يبتلَّ لها ريق بمال ولا ولد، وحتى اسم أحمد الذي يُزيِّن اسمها لم ولن يولد».

لطالما كان رجلًا متسامحًا وكأنه منحة السماء لي، ولهذا كنت أثق به ثقة لم أشاركها أحدًا من قبل.

لا يرتاح جسدي على طاولة التشريح، وإنما كان متخشبًا كساق شجرة أصابها الخريف جفافًا.

يربت الطبيب الشرعي على كتفي وهو يقول:

«ارتاحي لن أدعك للغيلة فأنا هنا».



أسمعه وهو يملي على مساعده ما يراه:

«الجثمان في حالة تيبُّس رِمِّيّ كامل، يبدو كأنما مر على وفاتها أكثر من يوم كامل».

أتعجب لما يقول! إذ لا أذكر أني متُّ قبل أن ينهار العقار!

لا أرتاح، وأشعر بطاولة التشريح ترتجُّ من تحتي.. لا أدري إن كان هذا توابع للزلزال الذى أودى بحياتي، أم إنه قلبي اليائس الذي أطاح به الفراق.. يشعر بي الطبيب الشرعي فأسمعه يهمس في بطء، وكأنه يفكر من جديد:

«في بعض الأحوال يحدث التيبُّس الكامل سريعًا، ولكن يتطلب ذلك..»

ترتعد أوصالي وأنا أتذكر زيارة آخر الليل، بينما كنت أضع ابنيَّ في السرير.. تذكرت ابنيَّ انخلع قلبي، فأنا لم أر لهما جثامين وسط الركام، ولوهلة عرفتُ سِرَّ فزعي وجثماني يرحل عن الحارة، يا للمرارة التي أشعر بها، فقد تركتُ نطفتين من حشاياي تحت الأنقاض.

أشعر بأنفاسي تتلاحق، وأنا أتذكر تلك الحية أم أحمد وهي تغادر بيتي الذي لم يسبق له أن عرف الحقد ولا الغل.. كانت قد قضت المساء معي ونحن نشرب الشاي، بينما أستمع حكايات عن كل الجيران فُرِضَت عليَّ فرضًا. أعرف ما تضمره نحوي، ولم أكن يومًا من محبي الثرثرة التي لا تجدي نفعًا، لكني كما أمرني حبيبي ظللتُ أتلمس لها العذر برحابة صدر تفوق ما ألفته.

دعت لي بالنوم الهانئ وهي تغادر المنزل، بينما كنت أرى خلف أسنانها المنفرجة لسانًا يموج بكلمات حقد لم تُنطَق، وفي عينيها نظرة حيرة تشبه حيرة طفل على أعتاب دخول المدرسة لا يدري ما يُفعل به وقد نسي أداء واجبه.

لمحت تلك النظرة، وشعرت بخوف على إثرها في أقل من الثانية، قبل أن أتناساه سريعًا وأنا أوصد الباب خلفها.

«نحتاج لعينات دم للمعمل الجنائي».

قالها الطبيب الشرعي وهو يكتب رقمًا على العينة.. نعم كتب رقمًا ما.. فأنا صرتُ رقمًا، ولقضيتي ملف كتب عليه اشتباه تسمُّم.

تذكرتُ الألم القارس وهو يعضُّ في أمعائي قبل أن أُفرِغ ما في جوفي.. ثم انقباض عضلاتي كلها في ألم رهيب تخشبت معه ساقاي قبل أن أدخل في نوبة متواصلة من التشنجات.. كنت أرمق باب المطبخ بطرف عيني وتحديدًا تلك الضلفة المواربة، والتي كانت تحوي المبيد الحشري، أما كوب الشاي فكان نصفه لا يزال ممتلئًا بالشاي الذي صببتُه في لطف وقتلني في خذلان.

يسأل عامل دار التشريح في فضول: «وأي سُمٍّ نشتبه فيه».

«فلنبحث عن «الستركنين» هو مادة فعالة في سم الفئران».

أبكي في صمت حين أدرك أنه قد تم اغتيالي دون ذنب مني، وضاع ولداي، ولربما طُيِّبت ذكرى الأفعى التي قتلتني كشهيدة زلزال غاشم.



أتذكر ابنيَّ والستر الذي كان يحيط بنا ويبدو أننا فقدناه، ففي يوم واحد يتم اغتيالي ويموتون ونفقد كل شيء.. يتألم قلبي ويصرخ في صمت، وأنا أتخيل جثماني ابنيّ يحملهما الونش وسط الحطام، فلا عاشا حياة ولا كُرِّما في ممات، أتخيلهما حتى يبتلَّ شعري بالدموع، فيراها الطبيب الشرعي، بينما يسري الارتخاء الرِّمي في أوصالي، فيرتاح ذراعي على الطاولة.

«اهدئي سيدتي لم تنتهِ الحكاية بعدُ».. يطمئنني الطبيب الشرعي وهو يهمس في أذني كلمات كنت أحبها كثيرًا حين كانت تخرج من فم زوجي: «لن ينسانا الله».

يُفتح باب المشرحة في عجالة، وجثمان جديد يوضع على الطاولة المجاورة لي، فتعتمُّ الأجواء في المشرحة وكأن غيومًا هبطت عليها من اللامكان، خفتت الإضاءة وتحوَّل الصوت إلى فراغ عميق.. نظرت على وجهها لأراه قد احتقن بزُرقة لا أدري إن كانت زُرقة الاختناق أم زُرقة سواد قلبها، القلب الذي وَأَدَهُ الحقد.

يقرأ الطبيب أمر الإحالة «بيان سبب الوفاة وتحليل الحرز المرفق».. ثم أرى زجاجة أعرفها جيدًا.. كانت خضراء اللون وتحتوي على مسحوق أبيض كُتِبَ عليها «سم فئران».

«حُرِّزت في يد المتوفاة، وكانت قابضة عليها».

يقرأ الطبيب هذه الجملة من مشاهدات الأدلة الجنائية في الملف ويستطرد: «وجدتها الشرطة، وقد استدلَّت عليها من أصوات بكاء طفليها اللذين استخرجا حيَّيْن من تحت الأنقاض».. ينتفض جسدي «ابناي!!!!»

أستمع للطبيب الشرعي وهو يملي تقريره: «اختناق رضِّي إثر ضغط كبير على منطقة الصدر، فهناك زُرقة في الوجه والذراعين وبَهَتان دون ذلك».

أرتاح ويرتاح جسدي المتخشب.. راحة لم أشعر بها يومًا حين كانت روحي في هذا الجسد، كان موتي ثمنًا لنجاة ابنيَّ، ولولا جسدي المتخشب لما طُوِّق المكان كمسرح جريمة، ولكان البلدوزر دكَّ ما بقي عليهم من ركام.

أنظر إلى تلك المرأة التي عاشت وماتت في حقد، فيرقُّ قلبي لها من جديد، لا أعلم إن كان عليَّ أن أكرهها أم أن أقبِّل رأسها.. ثم تذكرتُ زوجي وما كان سيقول في مثل هذه الأوقات: «طهِّري قلبك».

تركتُ قلبي يسامحها وكل ذرة فيه تحمد ربنا على الستر الموصول، وعلى زهرتين سيزينان هذه الحياة بعدي، وسيقران قلب أبيهما.

في قَدَرِك يا رب رحمة لا تنقطع! تحالف الكون لينجد ابنيَّ، فحمدتُ ربي على لطفه.. الأن سأنام وتقر عيني، وأنا أردد بسم الله الرحمن الرحيم

«وكان أبوهما صالحًا».

هامش: التيبُّس الرِّمي

التيبُّس الرِّمي هو التخشُّب الذي يصيب جسد المتوفى بعد ساعات من الوفاة، ويبدأ تدريجيًّا حتى يصيب الجسد بالكامل بعد مرور ما يقرب من ثمان عشرة ساعة تقريبًا.

يبدأ في العضلات الصغرى وينتشر إلى العضلات الأكبر، والسبب يكون كيميائيًّا، فحين يموت الجسد وتنتهي وظائفه يبلى ما به من مواد وظيفتها الأساسية هي الحفاظ على ليونة المفاصل.

هناك قيمة دفينة لمثل هذه الظواهر لدى الطبيب الشرعي؛ فمن خلالها يستطيع تبيُّن وقت الوفاة بشيء من التقريب، وكذلك فإنه يستطيع أن يستمع لما في صدره من شكوك حول بعض أسباب الوفاة.. وحين يقرأ الطبيب الشرعي ظواهر كهذه تثير في نفسه بعض التساؤلات أحيانًا، فبعض أنواع السموم ينتج عنها تشنجات تصيب المجني عليه وتلازمه حتى تنتشر بكل عضلاته ويموت مختنقًا، إذ يفشل صدره في الانبساط أمام نسمات الهواء.

من هذه السموم هو «الستركنين» الذي يوجد في بذور مقيِّئة تُستخدم كذلك في بعض أنواع سِمّ الفئران.

في أحوال كهذه يساور الطبيب الشرعي الشك، فلا يهدأ قبل أن يتبين السبب وراء التغيُّر في توقيت التيبُّس.. هكذا يقرأ العلامات ويستمع لجسد المتوفى.

الاختناق الرضِّي

يُحكَى في تاريخ الطب الشرعي أنه كان هناك قاتلان تعاهدا على القتل، وعلى استدراج ضحاياهما إلى مكان ناءٍ وكانا يقتلانهم بأسلوب عجيب.. بحيث لا توجد أداة، وإنما كانت أداتهما هي جسداهما الضخمان، فكانا يُثقلان بجسديهما على صدر المجني عليها حتى تلفظ أنفاسها الأخيرة.. موت بطريقة عجيبة، ولكنهما



احترفاها.. ولكن فيما يبدو أن جميع الضحايا كن فتيات نحيلات لكي يستطيعا السيطرة عليهن.. عُرِفَت هذه الطريقة فيما بعدُ باسمَي القاتلين «هايد» و«بيرك»، فأصبحت تسمى (Burking Asphyxia).

وفي عالم الزلازل والحوادث أصبح هذا النوع من الاختناق يحدث دون الحاجة لأجساد «هايد» و«بيرك»، فيكفي انهيار العقار ليحتبس تحت ركامه شخص أو آخر بين صاج سيارة مهترئة؛ لكي يظهر عليه علامات الخنق الرضّي.. إذ في غياب «هايد» و«بيرك» غالبًا ما يكون هذا النوع من الاختناق عرضيًا.

الحكاية الثانية عشرة

من أجل عُزْلتي

«في وسط كل هذا التعفن ينادي الموت على المدد»

هيذر برنجلز



(١٢)

ارتطام شديد وصوت عظام تتفتت، ثم طار جسدي من جديد ليعاود الارتطام بالأرض في جزء من الثانية.. ثم حلّ السكون.

أقف على مقربة من منزلي الذي أسسته في حب شديد منذ ما يقل عن العام.. أذكر كم كنت سعيدةً وأنا أختار كل قطعة أثاث، وأصمم كل ركن فيه.. فأنا عادةً ما تستهويني أعمال التصميم، وكانت لي دائمًا نزعة فنية لا أدري إن كان هذا حبًا أم هروبًا إلى العزلة التي كانت دائمًا مصدر تجديد طاقتي.. حياتي كانت كلها عزلة وسكون.. عزفت عما يفعله زملائي بكلية الطب وعنهم جميعًا..

لم يكن لي أصدقاء بالمعنى المفهوم؛ فقد كنتُ أتحدث فقط إن لم يكن للحديث بديل.. لن أخفيكم الحقيقة؛ فأنا بداخلي شخصية عميقة، وخيالي خصب، لكن لا أظنُّ أحدًا يلقي لي بالًا، وأظن أن معظم زملائي لا يعرفون حتى اسمي.

ربما لاحظوا بين الفينة والأخرى تلك الفتاة ذات الشعر الأسود اللامع والبشرة البيضاء الشمعية والملامح الهادئة.. لكن لا أظن أحدًا منهم انجذب يومًا إليَّ بما يستدعي أن نتبادل أطراف حديث ولو كان حديثًا سطحيًّا.. أما أنا فلم أبالِ يومًا.. كانت حياتي وسلامي وبقائي مرتبطين بعزلتي وكنت أُثمّنها كثيرًا..

لطالما كانت ردود فعلي هادئة.. قد يكون أقصى انفعال عشتُه في حياتي المبتورة هو ذلك التوتر الذي عشتُه على حافة سطح المنزل وأنا أتشبث بالسور وجسدي يتدلى قبل السقوط..

أنا التي لم يعلُ لي صوت يومًا في تلك اللحظة صرختُ أستغيث:
«الحقوني!»

تشبثتُ بالحائط الخشن في جزع، وقدماي تعافران لتجدا لهما سندًا يُخفف الحمل عن ذراعيّ اللذين بدأت تخور قواهما.. شعرتُ بالفردة اليمنى من الشبشب تنقطع فتهوي من قدمي، فأغرس أظافر قدمي اليمنى في الحائط علّها تُنجدني.

كنتُ قد فقدت الفردة اليسرى قبل السقوط.. فقدتها على السطح قبل أن يتدلى جسدي في هذا الوضع المرعب.. لا أريد السقوط والألم في كتفيَّ شديد.. وآلام خلع أظافر يدي وقدمي بفعل الحائط آلام مضنية.. لكن عمري كله يضيع.. سأتمسك به حتى آخر لحظة..

فأنا لم أحْيَ بعدُ.

تذكرتُ أفكارًا داهمتني قبل سقوطي بأيام.. تذكرتُ شعور اليأس والقهر وأنا أطالع هاتف زوجي الجديد، والذي لم يمرَّ على حياتنا معًا سوى شهور قليلة.. وقفتُ صامتةً كعادتي أطالع رسائل غرامية بدا فيها دافئًا جياش الشعور.. مَنْ هذا؟! وما كل هذا العشق وكل هذه الرغبة التي يتحدث عنها؟؟! وكأنه شخص آخر غير ذلك الشخص الرصين الذي قابلته في الكلية، وهو يحاضر لي ولزملائي في آخر سنة دراسية لنا..

كانت عيناه مُتَّقدتين بذكاء وخبرة، وكان طويل القامة حسن الوجه كممثلي السينما.. والأهم من كل ذلك.. أنه كان الوحيد

في هذا العالم الذي شعر بوجودي، وسأل عن اسمي، وكأنه وجد ضالته.. لا أدري لِمَ تزوجته في أقل من شهرين، وحتى قبل أن أتخرج؟ لِمَ كانت العجلة؟ لا أدري.

ربما وجد فيَّ شيئًا كان يبحث عنه.. ظننتُ أنه رأى ما لم يره غيره.. ربما.. وربما رأى ما رآه كل الناس، ولم أعبأ أنا به يومًا.. عائلة عريقة غنية وفتاة لا تملك أحلامًا.

تذكرتُني وأنا أرفع عينيَّ عن الهاتف بهدوء وأسأل: ما هذا؟ فقط ليأتيني الرد: «امرأة مثيرة.. أتحسبين أنك امرأة؟!»».

لم أردّ، لكني فكرتُ كثيرًا في الموت بعدها.. فكرتُ في العودة لبيت أهلي، لكني لا أملك طاقةً للحديث عما جرى أو حتى للاعتراض.. أريد السلام.. أريد العودة لعزلتي سريعًا.. لا أريد النزاع.. خانتني دموعي، فسقطت في هدوء شديد.. دموع تعلن فزعي من كل ما حولي.. صخب لا أملك أن أسكته، ولا أن أسدَّ أذنيَّ عنه.. أريد عزلتي.

حين خارت قواي ولم أعد أستطيع التشبُّث بالسور، وأعلنت استسلامي تلقَّفني الهواء في رحلة سقوط أكثر من عشرة طوابق.. تذكرتُ جلساتي الطويلة على ذات السطح أتلمَّس العزلة كلما ضاق بي الحال في منزلي الجديد.. كان المنزل من ثماني غرف لم أحتَجْ أبدًا أكثر من مترين فيها لأتقوقع على نفسي، وأقرأ أو أشاهد التلفاز.. لكنه كان يضيق كلما دخل هو المكان.. كان يطبق على صدري، وكأن السقف لا عماد له ليرفعه.. كنت أشعر بالهواء يهرب من الغرفة حين يطأها ونظراته القاسية تُشعل الغرفة كرهًا،

وكأن نارًا اتَّقَدَت بها..

من أول يوم دخلنا هذا المنزل معًا وأنا لا أعلم لِمَ تزوَّجني، كان يُشبِعني نقدًا كل لحظة، فلا شكلي يعجبه، ولا جسمي، ولا سكوني، ولا كلامي، ولا ملابسي، ولا أي شيء.. كان وكأنه وجد مادة حية للعبث.. وكانت لغته فاترة باردة قاسية..

كنت أهرب إلى السطح، وأجد فيه متعة البعد عن صوته الناقد.. عن نظراته الساخرة.. عن وجوده نفسه..

في طريق سقوطي رأيت السماء فوقي زرقاء صافية تودِّعني.. شعرتُ بحنين لها.. لم أكن أعلم أنك كنت تشعرين بوجودي.. سأفتقد جلساتي تحتك.. مرَّت سحابة بيضاء فوقي فتوقفت وكأنها تظللني.. أشعر كم أنا هامة لأول مرة في حياتي الفانية.. تساءلت من أين أتيت بالطاقة لألقي بنفسي من فوق السور.. هل فعلتُ ذلك حقًّا؟ لا أتذكر..

مُسَجَّاة في استسلام أمام الطبيب الشرعي.. يقف إلى جواري، ويقرأ أمر النيابة: «بيان ما إذا كانت الحالة انتحارًا من عدمه».

انتحار؟ كلمة صعبة جدًّا تتطلب جرأة ويأسًا لا أظن أني سبق وامتلكت الطاقة لأي منهما..

تذكرت عدد المرات التي قالها لي زوجي منذ انتقلت للعيش معه.. كان يسأل: متى تنتحرين؟

كان يتحدث في الهاتف وأسمعه يقول لأمي: إني مكتئبة ويخاف عليَّ من الانتحار.. لم أكن أبدًا مكتئبة.. كنت أعيش في عزلتي



وأعشقها، ولا أريد من الدنيا غيرها.. كانت حصنًا وأمانًا منه ومن شخصيته المريضة..

تذكرتُ كمَّ القهر النفسي والتنمُّر الذي مارسه معي، وكيف أني كنت أتحصن بداخل نفسي ولا أشعر بشيء.

أنا لم أشعر يومًا بالاكتئاب أو الضعف.. أظنه علم ذلك.. بل أتذكَّره حين سبَّني: «جلدك سميك».. نعم كانت لي صدفة كالسلحفاة أحتمي بها فلا يصل إليَّ.

ولا أدري إن كان هذا هو سبب كرهه الشديد لي أم لا، ولكن دون شك كان هذا سبب غضبه اللانهائي تجاهي.. أظن أن برودي وضآلة ردود فعلي الدائم أيقظ الوحش السيكوباثي داخله.

أصيح: «أنا لست منتحرة»، بينما ينهمك الطبيب الشرعي في إحصاء عظامي المهشمة والرضوض الموجودة على جسمي على مقعدتي وظهري، ويقرر أن مقعدتي كانت أول نقطة ارتطام بالأرض.. هو لا يسمع صراخي الآن ولا أستطيع أن أخبره.. أنظر حول الغرفة فأجدها.. مَن هذه الطبيبة الشابة.. أكاد أجزم أني أعرفها.. من الفزع المرسوم على وجهها أظنها هي الأخرى تعرفني.. ربما كانت معي في الكلية حين كنت طالبة.. تذكرتها!! اسمعيني!!!

أحاول النهوض، فلا أستطيع، ولكنها تبدو وكأنها تستمع..

بدت حزينة وخائفة.. تذكرتُ إحساسي وهو يقترب مني فوق

السطح ويدفعني للخلف.. سقطتُ على الأرض ونهضت سريعًا دون أن أنطق، ودون أن أنظر حتى لفردة الشبشب اليسرى التي انخلعت من قدمي.. نظرتُ إليه نظرة فارغة كعلاقتي به.. بدا أنه قد عزم على الأمر.. استفزَّه سكوتي، وأمسك بخصلات شعري في وحشية مفرطة.. ثم رفعني وهو يمسك بساقي ليقذف بي من فوق السور.. حينها تمسَّكتُ بالسور، ولا أدري إن كان رآني أم لا.. ولكنه.. رحل وتركني.

أنظر إلى الطبيبة الشابة وأستجدي منها الإنصات.. في وسط كل هذا العبث.. انظري إلى خصلات شعري الممزقة..

أجد باب عزلتي قد انفتح من جديد.. أسارع لأدخل إليه وأنا اسمع صوتها تقول: « د. حاتم انظر إلى خصلات الشعر الممزقة.. انظر إلى أظافرها المخلوعة.. ما تفسيرها؟»..

أدخل إلى عزلتي وأنا هادئة مبتسمة.. سأذهب الآن ضاحكة.. فلن يدنِّس أحد عزلتي بعد اليوم.

هامش: السقوط من عُلوّ

السقوط من عُلوّ هو أحد أصعب الحالات التي يتعامل معها الطبيب الشرعي بغرض معرفة كيفية الوفاة؛ وذلك أن هذا النمط من القتل موجود في حالات الموت العرضي والانتحار والقتل.. ما لم يتمكَّن الطبيب الشرعي من التوصل إلى السبب الرئيسي وراء السقوط، فإن العلامات الموجودة على جسد المتوفى لها دور كبير جدًّا في الاستدلال. على الطبيب الشرعي معرفة السبب وراء جميع هذه العلامات، ليجزم بسبب الوفاة؛ فمن هذه العلامات

ما حدث أثناء الهبوط، ومنها ما يشهد على أحداث تزامنت مع اللحظات الأخيرة قبل السقوط.. وجود علامات صراع على الجثمان قد يكون الدليل الوحيد على وجود جانٍ تسبَّب في السقوط.. كل هذه العلامات يقرأها الطبيب الشرعي حينما يعجز غيره عن ذلك.

دراسة السقوط من عُلوّ دراسة معقدة يختلف فيها شكل المتوفى ومكان ارتطامه الأول بحسب الارتفاع الذي سقط منه.

كلما ارتفعت نقطة الصفر قبل السقوط بعدت المسافة بين مكان الارتطام الأول والثاني، فكل جسم يرتطم بالأرض يكون يرتفع عنها ثانية بفعل رد فعل الأرض المساوي لقوة الارتطام؛ فالمكان الذي يوجد فيه الجثمان نادرًا ما يكون هو مكان الارتطام الأول، والطبيب الشرعي يعي ذلك جيدًا حين يناظر الجثمان.

الحكاية الثالثة عشرة

والقاتل مجهول

«أهم شيء في التواصل هو أن تستمع إلى ما لم يُقَلْ»

بيتر دراكر

(١٣)

هدوء قاتل.. أخيرًا.. أم تراه هدوء مقتول؟

أشعر كمن وصل لاهثًا إلى بيته، وأوصد خلفه الباب، واحتمى من ضجيج العاصمة.. فسكن الكون.. غير أنني لم أكن قد برحت بيتي منذ سبعة أيام.. لا أذكر منها الكثير.. لكني أذكر فقط الضجيج.. ضجيج لا ينقطع.. ضجيج في رأسي وحدي، وآلام في رأسي وأذني لا أعلم لها سببًا..

أقف الآن تائهًا وسط ما يشبه ساحة الحرب.. قتلى ودماء في مسرح جريمة شديد الارتباك..

يبدو كأن العالم قد فني وأنا آخر الناجين.. غير أني في الحقيقة.. ميت.. أرى جسدي مسجًّى على ظهره وقد فقد الثلث الخلفيّ من الرأس، وسط بحر من الدماء، ويدي اليمنى التي اعتدتُ الكتابة بها مطبقةٌ في توتر على سلاح ناري قصير لا يزال الدخان يتصاعد من فوهته على إثر الإطلاق.. هذا أنا!!!! ربما نجحتُ أخيرًا في إخماد كل الأصوات.. ولكن لم لا أزال هنا؟

«انتحار».. نطقها خبير مسرح الجريمة وهو يقف على مقربة من جثماني باهت اللون من أثر النزف.. «هناك توتر رمّي في عضلات يديه، ولا يزال سلاح الجريمة في يده».

تذكرتُ ذلك الصخب في رأسي، والذي لا يريد السكون أبدًا.. نعم أنا من أخمد الصراخ حين أطلقت المقذوف بضغطة على الزناد.. فسقطتُ على مقربة من زوجتي وأبنائي الثلاثة.. لحقتُ

بهم بعد أن حرَّرتُهُم من الضجيج..

«مَنْ أنت؟» همس الطبيب الشرعي في هدوء لنفسه، وهو يناظر ملف القضية في يده.. «وماذا فعلتَ؟»

حقًّا من أنا؟ كيف وصلتُ إلى هنا؟ ماذا حدث؟ لا أذكر الآن سوى حفل تكريم أقف فيه وأتسلم جائزةً تبدو مهمةً من أناس يبدون مُهِمِّين.. كان شكلي مختلفًا عن ذلك الجسد الملقى على طاولة التشريح.. يبدو أنني فقدت الكثير من الوزن، وفقدت شغف الاهتمام بمظهري فبدا جسدي أشعث.. متى حدث ذلك؟ لا أذكر..

«مدير بنك؟!!!» صاح الطبيب الشرعي في تعجُّب: «ماذا حدث إذًا؟».

ينتاب الطبيب الشرعي شعور غريب ربما بسبب دموعي التي تساقطت من زوايا عيني لتبلل الطولة من تحتي.. «اهدأ يا صديقي.. سأستمع إليك»، نطقها الطبيب، فاستسلمت له وللارتخاء الأولي لعضلاتي.. سأبوح لك.. استمع.

دخلت منزلي الكبير، وأنا أكاد أختنق؛ فلا هواء ولا هدوء.. أشعر كمن يقف وسط ساحة مصارعة ثيران.. زوجتي لم تكن تحادثني، وكذلك أولادي.. لهم كل الحق.. فمنذ ذلك الحادث المؤسف على جانب الطريق وهم موضع سخرية وتنمُّر من الجيران والأصدقاء..

أعلم أنني لُمْتُ نفسي كثيرًا، بل وكرهتها على ما آلت إليه..



لكن الحق أنني حتى لم أكن أذكر بجدية ماذا فعلتُ لأستحقَّ تلك النقمة من الكل.. ولو لم يكن لذلك الفيديو الذي انتشر على صفحات الإنترنت، والذي تظهر به ملامحي واضحة جلية ولا تقبل التأويل وأنا أتعرَّى في الطريق العام وأتحرش بالمارات.. لولا ذلك الفيديو لظننتُ أني مظلوم.

لولا ذلك المقطع المصور، لكنت ما زلت في موقعي وعملي، ولم يكن سيُطلب مني الاستقالة.

أشعر بالخزي، لكن الضجيج يفوق كل شعور آخر.. ضجيج لا يريد أن يكمن ولو للحظات..

رأيتها أمامي حين دخلت المطبخ تصرخ في وجهي في غضب.. رأيتها دون أن أسمع ما تقول، فقد علا صوت الضجيج على صوتها.. ربما كانت توبِّخني.. ربما تطردني.. لا أعلم.. لا أذكر سوى فزعي حين اقتربت مني بوجهها الغاضب، وقد ضمَّت أصابعها في قبضة استعدَّت لتكيل بها الضربات على مُقدّمة صدري.. رأيت وجه الثور الغاضب.. ربما هو مصدر الضجيج؟ لا أذكر سوى أني أردتُ إخماد الضجيج.. لا أذكر جيدًا إن كان السكين على الطاولة من البداية أم إنني مددتُ يدي إلى حامل السكاكين لأغرسه في رقبة ذلك الثور الهائج.. فزفر من داخله آخر نفس.. ليستقرَّ جسد زوجتي على الأرض ساكنًا سكونًا لم أشعر به؛ لأنه لم يسكت الضجيج.. لم يعد لها وجه الثور.. بل عاد إليها وجهها الجميل الذي طالما تغزلت فيه.

«ماتت نزفًا» كتب الطبيب الشرعي.. «إثر طعنة واحدة في

الرقبة، وسلاح الجريمة مُحزَّز منطبق على حجم الطعنة».

رأيتها على طاولة التشريح الأخرى إلى جانبي.. نعم أراها وقد شحب لونها، وكأنها شبح لكن دون أن يؤثر ذلك في جمالها ولا طيبة ملامحها.. أي وحش أنا لأقتل ذلك الجمال؟!!! ولكني لم أقتل إلا الثور الهائج.. لا أذكر.. لم أعد أذكر شيئًا.

وقفت وسط دمائها أخضِّب كفي في البحر الأحمر الساخن كمن ذبح أضحية.. رفعتُ عيني لأرى انعكاس صورتي على وجه الموقد، فصرختُ.. ما هذا الشيطان القابع في الموقد.. ما هذه الشياطين الصارخة الصغيرة التي تصرخ من خلفي دون هوادة..

فزعتُ وصراخهم لا ينتهي الواحد تلو الآخر.. تراهم هم مصدر الضجيج القاتل.. أسكتُّهم بيدي.. خنقتُ الواحد تلو الآخر لأُسْكِت الصراخ، فيخبو صوت المعركة التي لا تنتهي.. خنقتهم حتى لم يعد هناك صراخ..

«توجد علامات خنق بأصابع اليد، والقاتل يستخدم يده اليمنى على كل من الأطفال الثلاثة.. سبب الوفاة أسفيكسيا الخنق».

«ربما قتلهم الأب فعلًا، فالفرق كان كبيرًا بين حجمهم وحجم القاتل.. التدمير شديد بالرقاب الثلاث.. رضوض شديدة وانسكابات دموية بالرقبة وكسر داخلي للعظم اللامي».

تنهَّد الطبيب الشرعي كمن يستحضر الخيال.. «ماذا حدث؟ أخبرني».

يبدون كضحايا حرب.. ماذا فعلتَ يا صديقي؟

شعرتُ بالارتياح تحت يد الطبيب الشرعي.. يريد حقًّا أن يستمع.. أحتاج لمن يسمعني.. لطالما احتجتُ لمن يسمعني، فلم يُعِرْني أحد أي اهتمام.. لم يُصَدِّقْني أحد حين صرخت أنني لا أذكر ذلك الحادث في الطريق.. لم يعذرني أحد حين بدأ مظهري يتغير، وانطلقت ذقني الشعثة، وصارت لي رائحة كرائحة الموت.. احتجتُ لمن يسمعني قبل إصدار الحكم عليَّ.. فأنا كنت وما زلت أحارب الضجيج.

وضعتُ يديَّ الاثنتين على أذني لأخمد الصوت فلم أفلح.. لم يفلح شيء، رأيت أجساد زوجتي وأبنائي وقد استكانت.. ربما قتلهم الضجيج، وربما قتلهم الشيطان القابع في رأسي، لكنهم يبدون في سكون أطمح إليه..

صوت حوافر خيل وطبول حرب وصراخ وعويل ملأ رأسي.. أسكتُّها كلها حين أطلقتُ عليها النار من فمي لتُحدث فتحة خروج مهولة من أم رأسي آخذة معها الضجيج والعذاب والألم والسكرة.. تلك الضبابية في عقلي التي قادت الجميع لاتهامي بتعاطي المخدرات..

«عيب عليك في سنك ده ومركزك تبرشم».

جملة سمعتها كثيرًا مؤخرًا من أخواتي وزوجتي وأصدقائي.. كانوا يرونني أترنَّح، فيعتبون عليَّ، وأرى القهر في أعينهم.. لكنه لم يكن يماثل القهر الذي كنت أشعر به.. فأنا لم أتناول مخدرًا في حياتي.. بل ولم أكذب أبدًا.. فكيف صرت سكيرًا كاذبًا في أعين الجميع.. ثم جاء ذلك اليوم الذي لا أذكره ليحطِّم ما بقي من

سمعتي.

انتفض جسدي على الطاولة تحت المشرط، فالضجيج قد ولى.. لكن ما بقي من سيرة سوء خاتمتي لن يموت.. ولن يعلم أحد أبدًا عن ذلك الوحش القابع بين أنسجة مخي يصرخ وكأنه الغول في حكايات العامة.. قبع هناك بين النسيج المتهتك الآن.. هل بقي شيء منه في رأسي؟

ناديت على الطبيب الشرعي وتشبثت به: «عُدْ إلى هنا أرجوك».. وقف الطبيب على باب غرفة التشريح، التفت إليّ من جديد.. نظر إلى البرطمان ذي الغطاء الأحمر وإلى أنسجة المخّ السابحة فيه.. وكتب على الورقة التي وقف عليها: «معمل باثولوجي لبيان وجود أورام من عدمه».

سكت الوحش الصارخ الآن وقد أحسَّ بوشك كشف ستره.. سيعلم العالم عما قريب أن ورما في فص مخي الأمامي هو من قتل وهو من فتك بسري وسيرتي..

تنفستُ وقد شعرتُ بالانتصار بعد سنة كاملة من الانهزام.. أنا لم أقتل.. بل قَتَل هو.

هامش: تغيُّر السلوك الإجرامي

كثيرًا ما يروي الجاني وأهله عن تغيُّر سلوكي واضح حدث للجاني قبل أن يُقْدِم على جرمه.. كثيرًا ما يكون التغيُّر السلوكي بسبب عوامل نفسية، ولكن لا بد من التأكد من خلوِ الشخص من الأسباب العضوية.. وجود بعض الأورام في الفصّ الأمامي للمخ



ينتج عنه تغير واضح في السلوك والمظهر، وفي أحيان كثيرة نزعات للعنف لم تكن موجودة من قبل. لا بد من التأكد لإثبات مسؤولية الجاني، وتحقق النية فيما سعى إليه من جرم.



الحكاية الرابعة عشرة

ليس سيد الأدلة

«لا يمكن حصر الحقيقة المجردة وأنت بين الجموع ولكن لنشرها لا بد من وجود الحشود لتنتشر بينهم كالعدوى»

هنري اميل



(١٤)

جلس على مهل وفي يده ملف يدرسه باهتمام، ملف كُتِبَ عليه اسمي، أو ربما كان أحد أسمائي.

«ملف مُفزِع لمجرم عتيد الإجرام، نتعلم معنى الخوف بمجرد تناوله.. أتعجب كيف تمكنت الشرطة في هذا التوقيت من انتزاع كل هذه الاعترافات منه»».

يتمتم الطبيب الشرعي وهو يعيد فتح ملف أغلق منذ اثنين وعشرين عامًا.

أنا قاتل، قتلتُ الغانية المتسلطة التي كانت تتخذني ولدًا.. قتلتها حقًّا في صراع معها نتج عنه ثلاث طعنات في حشاياها ومن فرط غضبي.. انغرس كفي خلف كل واحدة منهم وتلطخت يداي بدمائها.. كانت الدماء دافئة دفئًا أشبعني حين سرى في أوصالي، دفئًا لم أعهده يومًا منها وهي حية.

قضيتُ طفولتي والجزء الأول من شبابي شخصًا مهمَلًا لم يُعلِّمه أحد كيف يعتني بجسده ولا لباسه، فأصبحت هيئتي رثة كقاطني ظِلِّ الكباري.. لا أذكر يومًا تناولتُ فيه وجبة ساخنة لم تكن مسروقة، ولا حمامًا أخرج منه شاعرًا بآدميتي.. كنت كما الكلب الضال، فروتي نهشها الجرب، وعظامي عرَّاها الجوع.. بأي حق إذًا تتنمر عليَّ وتنعتني بأسماء الحيوانات؟؟ بأي حق تُغلق بابها في وجهي، لتذكرني أني لم يكن لي يومًا أب؟ بأي حق تُلقي بي إلى الشارع وعيناها تحملان لي كل الكره الذي أضمرته للعالم الذي مضغها ثم بصقها هي الأخرى إلى جانب الطريق طريدةً مُنْهَكة..



ومعها ولد لا تعرف له أبًا ولا قيمة له، سوى أنه يُذكِّرها كل يوم بانحراف حياتها عن القضيب، وبانتظارها اللحظة التي تصل عربتها لحافة الجبل فتهوي ولا يُسمع لها حتى صوت ارتطام.

استحقَّت الموت لأبدأ أنا فصلًا جديدًا لحياة مصيرها اللحاق بذات الحطام القابع عند السفح.

«طفولته وحياته تنطبق عليها في علم التنميط الإجرامي الصورة التي تصنع مجرمًا» يقول الطبيب الشرعي، وهو يبحث بين الأوراق: «ماذا كان معدل ذكائه؟».

يستخرج من الملف نتائج فحص نسبة الذكاء، فيضحك ملء فمه « كان لا يزيد على الثمانين!!!! حقًّا عجيب!»

يفكر الطبيب طويلًا، فهو من الصعب أن يكون قاتلًا متسلسلًا، وذكاؤه محدود هكذا، ولكن لكل قاعدة شواذ.

تُداعب عقلي كلمة «قاتل متسلسل»، وأتذكر أنني هكذا عشتُ وعلى هذا متُّ، حتى إنني اعترفت بما يزيد على ستة وستين قِتْلة، وما خفي كان أعظم.. كنت صورة الجاني عديم الرحمة والشفقة، وتناولني الإعلام في زمني على أني ظاهرة فريدة لم ولن تحدث في التاريخ.

«أتعجب كثيرًا من شكل الجرائم المنسوبة إلى هذا المجرم».. يقول الطبيب الشرعي وعيناه تبحثان عن إجابة للاختلاف البادي في هذه الحالة بالذات عن كل ما تعلَّمه: «لا يبدو أن له أسلوبًا واضحًا في القتل وهو ما نسميه modus operandum فتارة يقتل



من الأمام وتارة من الخلف.. الآلة المستخدمة وطرق استخدامها متنوعة، نوع الجرح وعدده وكأنه دائم التغير!!!».

أتذكر يوم القبض عليَّ حين اتُّهِمْت في اختفاء سيدة عجوز، وأخرى كانت هي رفيقتي في ذلك الوقت.. ورغم عدم وجود جثمان ولا دليل واحد على أنهما ماتتا إلا أنني اعترفتُ.. اعترفتُ اعترافًا كاملًا وعن طواعية.. أذكر نظرة الرضا في عين المحقق في ذلك الوقت، نظرة لم أرها في عين أحد من قبل.. تنهد الصعداء، واحتفل في كلمات موجزة بإغلاق القضية في وقت قياسي.. أما أنا فقد وُعِدت بطعام وفراش واهتمام لم أعهده في حياتي قط.. عيَّنت لي الشرطة مرشدةً روحانية تساعدني على التوبة.. كانت جميلة جمال وجه اللبن الحليب لا تشوبه شائبة، قلبها لا أصباغ فيه، فكان له وهج تراه خلف عينيها.. رأيت فيها على رغم صغر سنها، أمًّا لم تُكتَب لي يومًا.. عشقت أوقاتنا معًا وفرحة عينيها وأنا أعترف بالخطايا الواحدة تلو الأخرى، فأغتسل وأتطهر منها. كانت تجالسني حتى أفرغ من الاعتراف، فكنت لا أفرغ من الاعتراف لتبقى قريبة مني.. كانت تهتم بي وباحتياجاتي فأنا كنت في نظرها رجلًا ميتًا ينتظر الاعدام.

«يوجد في الملف قصاصات جرائد كثيرة تروي كيف تناول الإعلام الأمريكي في منتصف السبعينيات القاتل الأشهر في ذلك الوقت.. كما توجد تسجيلات مرئية لاعترافاته أو البعض منها على الأقل».. قرر الطبيب الشرعي دراسة الاعترافات ومقارنتها ببروتوكولات الاعترافات المعترف بها الآن في الزمن الحديث.

تذكرت اعترافاتي وما كان يتبعها كل مرة من كوب كبير من

اللبن بالفراولة التي أصبحت أعشقها.. بدا لي أنه كلما اعترفتُ بجريمة جديدة يقابل اعترافي باحتفاء كبير، حتى إنه تطورت بيني وبين المحقق علاقة من نوع جديد كنت أفهمه بنظرة عين.. هكذا أصبحتُ أعرف جيدًا ما يريد أن يسمع، فأُسمِعُه إياه وآخذ نصيبي رضًا ومشروبًا مُفرحًا.

زادت الثقة المتبادلة بيني وبين الشريف الذي أصبح له ثقة عالية في المحافل على مستوى الولايات المختلفة.. وذاع صيته من أثر القضايا التي تمكَّن من غلقها والوصول إلى الجاني فيها.. فأصبحت وكأني رفيق هذا النجاح بالنسبة له.. وبالنسبة لي هذا أقرب ما أمكنني الوصول إليه من شكل العائلة، فزادت رغبتي في الحفاظ عليها.

«لا أرى أية أسس للاتهامات الموجهة لهذا القاتل إلا في قضية واحدة، وهي قضية قديمة كان قد سُجِنَ على إثرها قبل موجة الاعترافات هذه، وهي قضية قتل أمه.. أما باقي القضايا فلا يوجد دليل طبي شرعي واحد يمكنه إيجاد العلاقة بينه وبين المجني عليهم أو الجرم الذي أودى بحياتهم»، يتعجَّب الطبيب الشرعي مما يراه في ملفات كل القضايا التي أغلقت على اعترافي.. ففي أيام خَوَالٍ كان الاعتراف هو سيد الأدلة، والدليل الطبي الشرعي، والذي يمكنه مضاهاة الحمض النووي لم يكن بعدُ قد ذاع استخدامه.

أهالي أحد الضحايا لم يشعروا يومًا أن القتيلة ارتاحت في لحدها باعترافي.. وأن روحها لم تزل تائهةً مثل روحي لسبب غير معلوم، قلوبهم لم تهدأ يومًا وما زالوا يريدون الخلاص.

تقدمت أم الضحية بطلب إعادة فتح القضية من جديد، فصورة ابنتها وهي ملقاة على بطنها إلى جوار سيارتها في الجراج لم تفارق مخيلتها من عشرين سنة.. هكذا أعيد استخراج الملف، ومعه قرار نيابة بإعادة دراسة العينات المحرزة من تحت أظافر المتوفاة ومضاهاتها بالعينات الحيوية التي تخصُّني في صندوق الأدلة الجنائية الخاص بي.

«لا تطابُقَ يُذَكَر! هذا ما جاء في تقرير المعمل الجنائي».. قال الطبيب الشرعي وقد فغر فاه.. «هذا يعني أن هناك قاتلًا لا يزال يجوب الأرض حُرًّا طليقًا منذ عشرين سنة!!!».

نظر بإمعان إلى صور الحادث وكيف وضع الجسد وقد تعرّى نصفه الأسفل، وتباعدت بين ساقيها، وكأن من قتلها أراد بها الإهانة والخذلان.. لا يبدو وكأن القاتل كان عابر سبيل.. يبدو أنه أراد بها انتقامًا وخذلانًا ربما أذاقته إياه.

كيف لم يتتبَّع أحد هذا الخيط ويبحث بين أقارب الفتاة.. أو ربما حبيب مقهور.. وإن كان هذا الاعتراف كذبًا، فماذا تحوي سائر الاعترافات؟

أنا متُّ منذ زمن ومتُّ كاذبًا، ولكنكم من صدقتموني.. ترى لِمَ صدَّقتموني بهذا اليُسر؟ ربما رغبتم في التصديق، وربما كان كذبي طوق نجاة لكم، ولكن الحقّ أنكم مقصرون وسأختصمكم عند ربي.

تآكل جثماني منذ زمن، واستحال ترابًا، ولكن اسمي لا يزال في ملف يتناوله طبيب شرعي، فيُحدثني وكأن ذكراي لن تنقطع

أبدًا.. فأنا الآن عبرة ودرس، وحياتي على هوانها كساها موتي ثوبًا قيمته أكبر مما تخيلتُ.

يُخلَّد الناس بأعمالهم، أما أنا نخلَّدني ما لم أعمل.

هامش: متى يكون الاعتراف سيد الأدلة؟

في عالم ما قبل الاستعراف باستخدام الحامض النووي كان الاعتراف هو سيد الأدلة، وعاشت هذه المقولة حتى يومنا هذا مأخوذة مأخذ المبدأ القضائي.

حين ظهر الحامض النووي كوسيلة لتوكيد ما سبق وأن أخذ وكأنه مُسَلّم به انكشف الغطاء عن قضايا كثيرة أغلقها الاعتراف، وأعاد فتحها الدليل المعملي من جديد.

يظهر مع هذه الظاهرة سؤال وجبت الإجابة عنه دون مواربة.. فمع كل خطأ في العقوبة تضيع حياة إنسان وحيوات أخرى كثيرة تصير مهددة بجانٍ لا يزال يطوف حُرًّا دون رادع.. فوجب معرفة السبب الحقيقي وراء الاعتراف غير الحقيقي، وما يدفع شخصًا للإدلاء باعترافات غير سوية وغير حقيقية.

أول أسباب الاعتراف الطوعي غير الحقيقي هو طول فترة الاستجواب.. يعترف وقد قهره الوقت والإرهاق، فيصل الحال بالمعترف إلى أنه قد يقول أي شيء حتى ينتهي الاستجواب.. هناك خط فاصل بين الضغط على المتهم حتى يعترف، وبين الضغط عليه حتى يقول أي شيء.. أصبح هناك حد أقصى لمدة الاستجواب، وذكرها العلماء باثنتي عشرة ساعة، وما زاد على

ذلك فهو ضغط لن ينتج عنه صدق.

في بعض الأحيان بعض المشتبه بهم وبخاصة هؤلاء الذين لا يتمتعون بذكاء متقد، وبعض هؤلاء أصحاب صعوبات التعلم يصيبهم الإيحاء بكثير من التوتر، فلا يستطيعون التفرقة بين الأفكار الحقيقية المستخرجة من الذاكرة، وتلك التي دخلت بفعل الإيحاء.. في بعض الأحيان يضيع من المشتبه فيه الحد الفاصل بين الحقيقة والوهم، فلذا استخدام بعض وسائل الإيحاء، كذكر أن المحقق معه دليل قاطع على تورُّط المشتبه به، أو أن يقوم المحقق بذكر تصوُّر الجرم وكيف حدث أمام المشتبه به... كل هذه الأساليب بالرغم من أنها قد تنجح في انتزاع بعض الاعترافات المهمة من مجرمين حقيقيين، إلا أنها لو استُخدِمت مع بعض الفئات عالية الإيحاء، فلن ينتج عنها استخراج أي معلومات حقيقية.

في بعض الأحيان، وكما هو الحال في القصة السابقة، فإن التشجيع الزائد والمدح الزائد والوعود الزائفة حتى ولو كانت وعودًا غير منطوقة، فإن من شأنها أن تُفرز اعترافًا مبالغًا فيه، خاصة مع الشخصيات التي تهدف إلى إرضاء المجتمع المحيط، وتفتقر إلى شعور القبول.

حين تفشل ذاكرة المشتبه به عن وصف الجرم كمن يتعرض لصدمة ما بعد الحدث، فإن أي محاولة لملء فراغ الذاكرة ينتج حقائق مشوشة، وإن تبعها اعتراف فإن معرفة الحقيقة من المُقحَم سيكون صعبًا حد بطلان أي اعتراف يحدث بعد ذلك.

رغم أن الاعتراف مهم جدًّا، وإعادة تصوير الحادث أكثر أهميةً، إلا أن الاعتراف إن لم يتَّبع الأسس والأصول، فإنه في كثير من الأحوال سيصبح عديم الفائدة، وإن بُنِي عليه حكم، فالعدل سيكون منقوصًا.

إننا تعلمنا في البحث العلمي ما يسمى بـ«التثليث»، وهو أن كل معلومة وجب التأكد من صحتها من مصدرين آخرين.. وعليه فلكي نُدِين جانيًا فالاعتراف وحده يجب أن يُثلَّث بأدلة جنائية، وفي أحيان كثيرة تحقُّق الدافع أو معلومات أخرى.

فلا يوجد سيد للأدلة الآن، فكل الأدلة تحتاج لـ«تثليث».

الحكاية الخامسة عشرة

كفني على يدي

«للغة سحر كذلك الذي يضيفه القمر على المد والجزر»

ريتا براون

(١٥)

أنا ميت فيما يبدو منذ أمد.. لا أعرف لِمَ تجوب روحي الظهير الصحراوي لمحافظتنا بالصعيد؟ وكأني لا أريد أن أفارق أرضًا كبرتُ عليها وكانت فيها عزوتي وعتادي، فأنا لم أحبّ القاهرة أبدًا، ولم أعتدْ زياراتي لها مع أمي مهما كثرت، رغم أن أمي كانت قاهرية وأهلها كلهم عاشوا هناك.. لكن وبالرغم من أنها ظلت تربطها بهم روابط كثيرة، وبالرغم من محاولاتها المُضْنِية أن تربط قلبي بأبناء خالاتي القاطنين هناك..

إلا أنني كان قلبي صعيديًّا حتى الوتر، يجري نيل الصعيد في أوردتي مجرى الدم.. كنت أشعر بالبعد يقطع في عظامي إذا ما بتُّ بعيدًا عن أرضنا وبيت العائلة والسلاملك وأشجار الجميز.

كنت أشعر في بلدنا بالعزة والكرامة فأنا ابن الكبير.. والكبير في الصعيد هو الكل في الكل.. كنت أول حفيد، وكانت «ستي» تُشبعني حبًّا، ولكنه حب مُغَلَّف بصلف الصعيد وجبروت العائلة.

كانت أمي تضحك وتلاعبني وأنا صغير «ألم تأخذ مني أي شيء؟ كلُك لأبيك؟!! ما رأيك أن أباك يعشقني أنا؟»».

كانت على حق فأمي كانت نقطة الندى الوحيدة التي كانت لا تستحي أن تبلل جبين أبي.. وكان هو الآخر ليّنًا معها وحدها.. وكأنه كان لها «شريف بيه» آخر غير الذي كان يراه سائر الخلق.. كانت عيناه تنبضان حبًّا واشتياقًا لها، وتُذكِّره كلما رآها بأيام دراسته في القاهرة والحب المشتعل الذي ساقه أن يخرج عن طوع أهله ويتزوج من خارج العائلة.

أذكر بكاءها الصامت على قبري وأنا أُدفَن بأمر من جدتي دون انتظار تصريح الدفن.. وصياح جدتي في أبي أنه لن يأخذ عزائي قبل أن يأخذ بثأري.. لم تبكِ جدتي حين جئتها محمولًا على الأكتاف بوجه مُدمَّم وقد فارقتني روحي.. وقفَتْ في جبروت على سلم السلاملك وقد اخشنَّ صوتها كرجل غاضب.. ودون أن تُقبِّلَني حتى قُبلة وداع أمرت أن أُدفَن، وأن تُشَنّ الحرب على عائلة وهدان.

لم يهدأ بال جدتي يومًا منذ جاء كبير عائلة وهدان قديماً إلى سلاملك قريتنا حاملًا كفنه على يديه صاغرًا، ليحقن دماء كبيره «صالح» الذي كان مُحمَّلًا بثأر في سلسلة طويلة من الدماء سالت على جانبي الرشاح الفاصل بين أرض العائلتين على مدى سنوات.. لم ترضَ يومًا بهذا الصلح الذي فرضه عليها الواقع الصعيدي.. وظلت تُضمِر لهم الشر على مدار العشر سنوات الماضية.. فكان متوقعًا ألا تبارك الصداقة التي نشأت بيني وبين صالح.. وكان بديهيًّا أن تنفث النار في خلافنا معًا حين شاءت الأقدار أن نقع نحن الاثنين في حب نفس الفتاة.. وأن نتنافس على الزواج منها.

سنوات من الجفاء بيننا سبقت ذلك الحادث الرهيب الذي أرداني قتيلًا -فيما يبدو- إثر طلق ناري.

منذ تلك الليلة تغير كل شيء في حياة البلدة.. اختفى صالح وسط زحام القاهرة؛ فرارًا من ثأر أصبح يلاحقه من جديد.

خيَّم الحزن على بلدتنا وصارت الأفواه تتنفس نارًا، في انتظار

لحظات يستطيعون فيها أخذ العزاء عني.. انعزلت أمي حدادًا على فراقي، وعدم قدرة على التعامل مع الحقد والكره الذي صار يبطن جنبات البيت.

أرى التراب ينهال على جسماني، ويُزاح الحَجَر في حرص شديد، فيتسلل شعاع ضوء إلى حجرة دفن الرجال، والتي كان جثماني ملقى فيها إلى جانب جثامين كثيرة لرجال عائلتنا ممن قتلهم قبلي الثأر إن أخطأهم الموت الطبيعي.

أرى وجه الطبيب الشرعي من بين الأحجار واقفًا يُشرِف على عملية استخراج جثماني بعد عام كامل من الدفن.

«اكتب يا بني تم التعرف على الجثمان بواسطة الدفان، ووُجِدَ في حالة متماسكة في كفن أبيض متصل»، يملي الطبيب الشرعي الملاحظات، ومن خلفه أسمع تكبيرات الدفان واثنين من رجال البلد: «الله أكبر الجثمان سليم لم يتحلل.. هكذا تكون جثامين الصالحين! أبشر يا شريف بيه ابنك شهيد!»، ينادي الدفان وجسمه كله يرتجف من هول المنظر.. كان جسدي كاملًا مكتملًا محنطًا، وكأنه جثمان أحد ملوك الفراعين.. لم يمس جسمي عطب ولا تحلُّل.. كنت كما أنا، ولكن كان جسمي مجففًا كما المومياوات.

«وُجِدَ الجسد في حالة تحنيط «تصحُّر» كاملة إثر حرارة وجفاف منطقة المدفن»، يستمر الطبيب الشرعي في الإملاء..

«عذرًا يا دكتور، هل لحالة الجثمان هذه أي تأثير على مجريات التحقيقات؟»، يسأل مساعد الطبيب في صوت منخفض.

لا أدري أية تحقيقات يشير إليها، فقد رحلت منذ ما يزيد عن العام، ولم يحقق في مقتلي أحد.. ومنذ دخلتُ قبري أسمعهم يحكون حكاية نزاع بيني وبين صديق الطفولة صالح نتج عنه أن أطلق عليَّ النار من بندقيته في وجهي على مسافة قريبة.

لم يناظر جثتي طبيب شرعي، إذ دُفِنتُ بأمر صعيدي، ثم كُتِبَ تصريح الدفن لي لاحقًا.. لا أدري ما الذي فتح التحقيق الآن.

يرتاح جثماني المُحنَّط على طاولة التشريح بعد أن نُقِلَ إلى المشرحة.

«الجثمان لن يصيبه أي نوع من التحلل، فلقدْ فَقَد كل سوائله، وبذلك ترك لنا جسدًا كاملًا، ليشهد بما حدث له، ويشير على قاتله».. يؤكد الطبيب الشرعي وهو يقرأ أوراق القضية ومعها أمر النيابة بالتشريح.

أرى بعين قلبي صالحًا راكعًا أمام باب منزل أمي بالقاهرة.. كانت في زيارة لأهلها.. تأخرت كثيرًا.

كانت حبيسة حزنها طوال العام، وما أن استطاعت أن تقوم مناهضة اكتئابها حتى قررت أن تنزل القاهرة، لتلقي بنفسها في حضن أمها وتبكي حرقة الفراق.

تفتح الباب وإذا به منبطح طالبًا السماح له بالحديث.. بكت أمي كثيرًا ولم تنطق.. نظرت إليه وإلى العمر الذي ضاع بين الأكفان، وبكت كل شيء ورأسه متدلٍّ لا يرفع عينه فيها، حتى هدأت تشنجات صوتها، وأذنت له بالكلام.

«أريد أن أبلغ عن حادث قتل».. جاء صوت أمي على الهاتف، ومن الناحية الأخرى يرد الصوت: «تكلمي يا أفندم.. متى وأين حدث ذلك؟».

ما دار بين أمي وصالح في ذلك اليوم سيظل سرًّا.. فهي لن تحكي لأحد، ولكنها كانت على يقين بأن لي حقًّا لم أستدلَّ عليه بعدُ.

«كيف تجرُئين وتحدين عاداتنا وتقاليدنا؟ كيف هان عليك أن يذهب جثمان ابن الكبير للمشرحة؟؟! ماذا سيقول عنا الناس؟!!» صاح أبي بأمي ما أن عرف أن سيارة مصلحة الطب الشرعي وصلت إلى مدفن العائلة.

ترد أمي في هدوء:

«جرؤت يا شريف بيه.. جرؤت حين رأيتُ ببصيرتي سلسال الدم القادم، وخشيت أن أخسرك.. كفاني أن فقدت الولد لن أنجو من فقدان الحبيب».

«أتريدينني أن أترك ثأر ابننا؟؟» صاح في يأس.

«بل يقضي الله أمرًا كان مفعولًا» ترد أمي وقلبها ينزف.

يحني الطبيب الشرعي على أذن مساعده في المشرحة، ويقول في كلمات مقتضبة: «ردًّا على سؤالك، إن وجود الجثمان في هذه الحالة هو هدية من المولى، فقد حفظ التصحر كل الإصابات والعلامات بالجسم وكأنه دُفِنَ بالأمس».

يربت الطبيب الشرعي على كتفي: «كما انتظرتنا كل هذا الوقت،

تحدّث إليَّ الآن، أنا هنا لأسمعك، احكِ لي ما دار».

علامات قرب إطلاق النار موجودة على الوجه، منها الاصطباغ الذي يُحدثه البارود وحروق على الجلد.. إذن كان السلاح قريبًا.

«هناك شيء غريب» يوضح الطبيب الشرعي وهو يبحث في عقله عن التفسير.. «هناك علامات دخول مقذوفات صغيرة مربعة الشكل متفرقة، إذًا فالسلاح سلاح غير مششخن محلي الصنع على أغلب الأحوال.. مثل هذه المقذوفات توجد داخل الخرطوش للسلاح محلي الصنع والمسمى ببندقية الغفير.»

يستمر الطبيب في الشرح في تقريره: «من المعتاد أن تكون علامات القرب مصحوبة بثقب كبير في منتصف منطقة الإطلاق يدخل منها المقذوفات مجمعة، ومن حولها بعض المقذوفات الفرادى التي تأخذ الشكل المربع، ولكن هذا ليس هو الحال».

يسأل المساعد في اهتمام: «يا دكتور، تقول مقذوفات، هل يعني هذا أنه إطلاق متعدد؟».

«لا لا.. ليس هذا هو القصد، فأنت تعلم أن المقذوف في هذه البنادق يكون في خرطوش يحمل عددًا من المقذوفات الصغيرة، فإطلاق واحد من شأنه أن ينتج عنه إطلاق العشرات، وفي بعض الأحوال المئات من المقذوفات».

«وما معنى عدم وجد ثقب مجمع لدخول المقذوفات؟».

«تعني أحد احتمالَيْن؛ الأول هو أن هذا لم يكن إطلاقًا عن

قرب، وهذا ينافي ما وجدناه من علامات قرب، والثاني.....».

يرتفع صوت القرآن من صوان نصب أمام السلاملك وقف على بابه أبي «شريف بيه» وكبير عائلة وهدان وحسن صديق طفولتي يتلقون العزاء فيَّ والسيدات تجمعن في الحرملك يُعزُّون أمي.. جلست أمي وجهها هادئ كمن خرجت للتو من عاصفة تتلقى العزاء والمباركات في نفس الوقت على انتهاء مسلسل الدماء الدائر بين العائلتين.. الآن تستطيع أن تهدأ، وأن تستقر، فموتي وإن كان فاجعة فاستخراج جثماني أجاب عن تساؤلات لم تُسأل في وقتها، ولكن وصلت إجاباتها في الوقت المناسب.. فأنا عشت عمرًا بأكمله أهرب من الثأر، وحين متُّ متُّ بسبب خرطوش فاسد انفجر في وجهي بدلًا من أن يخرج من فوهة بندقيتي وأنا أصطاد وإلى جانبي صالح.. كان لقاؤنا للصيد هو أول لقاءاتنا بعد الصلح، بعد أن قررنا ألا تفرقنا أبدًا امرأة، فالتقينا فقط ليُفرقنا الموت.

هامش: ما هو السلاح المششخن؟

في صناعة السلاح أصبح الإنسان يسعى دائمًا للدقة والكمال.. فكلما كان السلاح يُعَدُّ بدرجة عالية من الدقة في إصابة الهدف كلما غلا ثمنه.. تفتق ذهن الإنسان، لكونه أكثر الكائنات ضررًا وإضرارًا بهذا الكون.. تفتق ذهنه عن تعديل يُحدثه بماسورة السلاح تضمن أن المقذوف حين يخرج من فوهته لن يحيد عن مساره، وأنه كذلك يسافر مسافات أطول، ليصيب الهدف على مسافات أبعد.

كانت الخطة أن يحدد مسار المقذوف داخل الماسورة ليتحرك

المقذوف بشكل دائري منذ لحظة الإطلاق حتى يغادر فوهة السلاح، فيزيد ذلك من تركيز المقذوف، ويستمر في هذه الحركة الدائرية بعد أن يخرج من السلاح وحتي يصيب الهدف.. ليحدث ذلك أعاد الصانع صنع الماسورة بحيث تحوي مسارات مرتبة للمقذوف عبارة عن ارتفاعات حديدية تحدد مسار المقذوف بالشكل الدائري المطلوب.. هذا هو ما نسمِّيه بالسلاح المششخن.

وحين كان إبداع الإنسان معقدًا جدًّا في الأذى، فإن هذه الصناعة تحتاج لآلات ومعدات، وبالتالي لا نجد هذا إلا في الأسلحة المصنوعة في المصانع، والتي لها اسم ورقم مسلسل واضح.

سبعون في المائة من السلاح المستخدم في المناطق النائية ليس سلاحًا مصنعًا تصنيعًا كهذا.. إنما السلاح يُصنع تصنيعًا محليًا في ورش الخراطة، وبالتالي لا نتوقع أن تكون فيها هذه الششخنة، ونسميها سلاحًا غير مششخن محلِّي الصنع.

الفرق بين السلاحين كذلك هو شكل المقذوف، فالأول يُستخدم فيه الطلقات التي تُعبَّأ واحدة مع كل حافظة طلقات.. فبالتالي مع كل إطلاق نتوقع أن يكون هناك جرح دخول واحد.. أما السلاح الثاني فذخيرته عبارة عن خرطوش كخراطيش الصيد.. المقذوفات الصغيرة معبأة داخلها، فإذا ما تم الإطلاق تنطلق المقذوفات الصغيرة؛ لتصيب مساحة واسعة غير محددة؛ وذلك لتسهيل عملية الصيد.. كلما قربت مسافة الإطلاق قل انتشار المقذوفات على الجسم.. فإن أردتَ أن تقتل باستخدام سلاح كهذا فعليك أن تكون قريبًا لدرجة لا تسمح للمقذوفات

بالانتشار، وأن تصيب الجسد في مساحة محدودة، فيكون جرح الدخول جرحًا كبيرًا مجمعًا في المنتصف يُحدِث ضررًا.

هامش: لماذا لا تبلى كل الجثامين؟

غير أن للبعض كرامات، وغير أن لله في كل شيء إرادة.. فإن هناك تفسيرات علمية محتملة لعدم تحلُّل بعض الجثامين.. ففي قبر واحد يحدث أن يتحلل جسد ولا يتحلل آخر، وفي جسد واحد قد يتحلل جزء ولا يتحلل آخر.

لفهم ذلك علينا أولًا أن نعي أن الجسد مآله إلى حيث أتى كجزء من حفظ التوازن الأرضي.. فإن الجثامين في أصلها من عناصر الأرض، وتعود حين لا تعود مأهولة إلى الاتساق مع الطبيعة وعناصرها.. عملية التحلل هي نتاج عناصر كثيرة، منها ما يخص الجثمان كسبب الوفاة والحجم العضلي للجسد ونسبة الدهون الموجودة بالجسد، وأخرى تخص المناخ وظروف الدفن كدرجة الحرارة ودرجة الرطوبة ودرجة القلوية أو الحمضية.. ولأن المؤثرات كثيرة، فإن عملية التحلل لا يمكن التنبؤ بها بسهولة، دون توقُّع درجة من درجات التفاوت.

على خلاف ذلك، فبعض الأجساد لا تبلى بالمرة، بل تحفظها الطبيعة حفظًا يفوق عمليات الحفظ المعملية.. فهناك جثامين تُحنَّط بفعل الحرارة والجفاف، فتصبح كالمومياوات، ذلك أنها تعرضت لدرجات حرارة عالية تفوق الخمسين درجة، وفي ظروف شديدة الجفاف.. يحدث ذلك لأن البكتريا اللازمة لعمليات التحلل لا تستطيع الحياة في مثل هذه الظروف.. ولأن الجثمان

يفقد كل سوائله للبيئة المحيطة، فلن يتحلل لاحقًا حتى وإن تعرَّض فيما بعدُ لحرارة أقل، فيصبح هذا الجثمان محفوظًا لأعوام وأعوام.

هناك أهمية طبية شرعية لهذا الحدث الجلل إن حدث، وذلك أن الطبيب الشرعي يجد نفسه أمام كنز من المعلومات التي احتفظ بها الجثمان، ليدلي بها ولو بعد أعوام من الدفن.

سألتني قارئتي المفضلة إن كان هذا يحدث لكل من يُدفن في نفس الظروف؟ وسمعتُ من وراء سؤالها رغبةً في أن يطمئن قلبها بأنه لا يزال هناك كرامات برغم التفسير العلمي.. أجبتها بأن هذا لا يحدث للجميع، ولا يمكن التنبؤ به، وأنه يعتمد على الجثمان ذاته وما يحويه من نسبة سوائل.. وبرغم أن إجابتي لم تكن شافية لها، إلا أنني تمكنت أن أهمس في أذنها: «هو اختيار الله أولًا وأخيرًا».

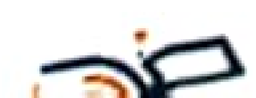
هناك ظروف أخرى يمكن أن تحفظ الجثامين أيضًا، ولكن لن نتطرق إليها هنا.

الحكاية السادسة عشرة

أنا وغيري

«من الصعب أن نتعرف على الشيطان وهو قابع على كتفك، فالشخص السيكوباتي ليس إلا إنسانًا طبيعيًّا قبل أن يصبح اسمه في عناوين الأخبار»

بكي ماسترمان



(١٦)

ماذا أتى بي إلى هنا؟؟

أصحو من غفوة فأجد نفسي في مكان غريب، لا أدري كيف جئت إليه، ولا متى، ولا أدري ماذا أفعل فيه.

لا أتوتر البتة، فأنا اعتدتُ الشعور بالضياع بين الفينة والأخرى.. أصحو فأجد نفسي في مكان غير المكان.. اعتدتُ كذلك أن يُحكي لي عما فعلته بالأمس فلا أذكر منه شيئًا.. لا أظن ذاكرتي مجهدة، ولكني أنا المُجهَد.

ها أنا ذا ينتابني شعور الضياع من جديد وأنا في غرفة التحقيق.. لا أعلم لما يُحدِّق بي هكذا اثنان من المحققين ذوي الأجساد الفارعة والوجوه التي أعياها القلق.. وأسئلتهم تجتاحني وسط نظرات اتهام تسبح في دخان سجائرهم الكثيف.

«لماذا قتلتَها؟»

يأتيني السؤال كالصاعقة! فأنا لم أوذِ في حياتي نملة، فكيف لي أن أقتل إنسانًا؟! ثم من هذه التي قتلتُها؟

أنا لم أبرح منزلي منذ ما يقارب الأسبوع.. أو هكذا أظن.. عذرًا فإحساسي بالوقت منعدم انعدام رغبتي في الحياة.

لم أشعر يومًا أن هذا العالم يريدني منذ كنت في الخامسة من عمري.. لا يستطيع معظم الأطفال تذكُّر الكثير عن سنواتهم الأولى.. لكني لست كأيٍّ منهم.. أنا لا أستطيع النسيان..

وكيف أنسى مغامراتي في بدروم منزلنا مع زوج أم تلذذ بكرهي منذ لمح ابتسامتي الأولى؟ كرهني بالفعل حتى استكثر عليَّ أعوام طفولتي، واستبدلها بسنوات عذاب.. كان ساديًّا كريهًا، رائحته روث وأسنانه سوداء كقلبه.

جعل من تعذيبي أسلوب حياة خففت عنه ضجر العيش في قريتنا في الصعيد.

جوّ الصعيد حارٌّ من أثر شمس تسطع عليه من مكان قريب، وتختزن الأرض حرارتها بالنهار فقط لتُشعَّهَا من جديد طوال الليل.. وكأنها تضنُّ علينا أن نتنفس هواءً لا يشبعه بخر ساخن.. في هذا الجو اللعين كنت أتصبب عرقًا في بروم منزلنا، وقد أهال عليَّ التراب وهو يضحك ضحكة ينكسف لها وجه الشيطان.

كان يفتقر للآدمية حتى ظننت أنه مسخ كالذين كنت أراهم في أفلام الرعب.. كان صيادًا وكنت أنا فريسته.. والعجيب أنني كنت الوحيد من بين إخوتي الذي يلقى تلك المعاملة، وكأن مجرد وجودي في هذه الحياة يوقظ فيه حيوانًا ضاريًا.. حتى إنني كرهت وجودي وجسدي النحيل وصورتي في المرآة.. تلك الصورة التي كانت تطالعني من عالم آخر بعينين زائغتين وقلب مكلوم.. كنت أشفق على ذاك الوجه في المرآة، وأخاف على صاحبه، لكني كنت أكره ضعفه وهوانه وجسده المهان.. شعور عجيب بالمسؤولية تجاهه، والرغبة في إخفائه في ذات الوقت.

يصيح الشرطي الأول بي: «بصماتك على زجاج السيارة حيث قتلتَ قِتْلَتَك البشعة، لماذا قتلتها؟!».

كيف أخبره أني لم أقتل أحدًا.. وأني حين خرجت الآن من سُباتي وجدتُني في هذا المأزق؟!! لم أجد وسيلة للشرح فكان ردِّي السكوت.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي أجد نفسي وسط جريمة شنعاء دون علم أو ذنب مني. فأنا ليس مسموحًا لي باليقظة كثيرًا.. كلما استيقظتُ قليلًا يصارعني ذلك الشخص الذي له نفس وجهي، فيقهرني ويجذبني إلى الخلف لأنام من جديد.. لا أدري لماذا يريدني نائمًا، وماذا يدور في تلك الأوقات التي أكون فيها في سُباتي، ولكن يبدو أن الكثير يحدث ولا أعلم عنه شيئًا.

وحين أفيق أجدني كاليوم، وسط فعل مخيف يبدو أنني تسببت فيه، فتاة مذبوحة ودماؤها هي الشاهد الوحيد على حياة عاشتها قبل أن يعترض طريقها قاتل لا روح له يقولون إنه أنا!!!!

لا أدري كيف يمكن لأحد أن يتهمني أنا بوحشية كهذه؟!! فأنا منذ نعومة أظافري رقيق النفس والحال مغلوب على أمري.. ضحية الفقر والعوز.. لكني لم أكن أبدًا مؤذيًا.. حتى في تلك اللحظات التي زاد فيها أذى زوج أمي الجسدي، حتى حين كان يستحلُّ جسدي الصغير اللدن لشهواته وانحراف أفكاره وساديّتها.. حتى حين كنتُ في وسط كل ذلك لم أفكر يومًا في ردِّ الأذى.. كانت الفكرة الوحيدة التي تُخيِّم على تلافيف عقلي الصغير هي الاختفاء.. «يا ليتني كنت خفيًّا ولي قدرة أو طاقية، كلما تذرعت بها أو لبستها صرت مخفيًّا عن العيون، فلا تطالني يد»).

في يوم حارّ وأنا في قبو منزلنا مع الوحش القابع به حدَّثني عقلي

أني إن أردت أن أختفي فسأستطيع، أغمضت عيني عن الحزام الجلدي العريض الذي كان يستعد لينزل به على ظهري الصغير.. ورحتُ أطمئن نفسي بأنه لا يراني مثلما لا أراه، خفق قلبي فربتُ عليه: «اهدأ سنكون بخير»، قلت ذلك في ثقة ليست من شيمي، قلته بصوت كدتُ لا أعرفه، كان فمي ولساني، ولكن لم يكن صوتي، ردَّد الصوت ذلك كثيرًا حتى صفعني الحزام في قوة استثنائية انقطع معها نَفَسِي وغبتُ عن الوعي، رحتُ في رحلة لا أذكر منها سوى أني لم أكن موجودًا.. كانت هذه بداية علاقتي به، ذلك الصوت الذي وُلِدَ من رحم انهزامي، وُلِدَ ومعه ثقة لم يدنسها يومًا قهر ولا فشل.. وُلِدَ ومعه شخصية تسير في الحياة وكأنها معركة.. وكل ما فيها غنائم حرب.. كبر معي الصوت واستحال أصواتًا ونَمَت شخصيته ونَمَت معه شخصيات أخرى.. كلها تجتاح عقلي وتسيطر عليه.

في هذه الحياة هناك أناس يقدرون ويفعلون ويحققون ويؤثرون.. هؤلاء جميعًا وُلِدُوا في داخل رأسي كلما كبرت.. أما أنا فكنت ولا زلت ذلك الطفل المقهور الذي لم يرغب فيه أحد يومًا، كنت وما زلت الطفل الذي لم ينمُ ولم يجتَز يومًا طفولته الملونة بلون الشقاء، فأُصبح لكل هذه الأصوات ذلك الطفل الذي يأمرونه فينام، ولا يُسمح له بمغادرة حجرته إلا بعد استئذان.

لسبب ما أنا سُمح لي اليوم بالاستيقاظ بل وبمغادرة عزلتي لأجد العالم في فوضى عارمة وقتل ودماء وأنا... متهم!!!

لا أدري مَن هذه المرأة المنحورة، ولِمَ كل هذا الغضب الذي رسمه قاتلها على جسدها؟ لكني لا أملك هذا الغضب ولا القدرة

على أن أصنع به أذى.. لستُ أنا.. فأنا كنت في سُبات عميق، كنت حبيس تلك الغرفة في عقلي التي يرسلني إليها ذلك الذي يملك وجهًا كوجهي.. كنت محبوسًا بها، ولم يسمح لي أبدًا بالخروج.

اعتدتُ أن أغرق في سُباتي في محبسي.. واعتدت الاستسلام له؛ فهو أكثر جرأةً مني، وصوته أكثر رجولة وغضبًا.. هو أيضًا يملك الدنيا وكأنه أُعْطِيَ مفتاح الكون.. هو قوي لا يمكن أن يتملكه أحد، ولا أن يؤذيه أحد.. هو أيضًا لا يقبل القهر ويستطيع الوقوف أمامه كالأسد؛ مثل ذلك اليوم الذي أرسلني لمحبسي الصغير وأنا أنتظر وطأة الحزام الجلدي على ظهري، فتولَّى هو الموقف وكأنه حارسي الخاص.. وبكل جبروت وقوة وقف فتصدَّى للظلم.. أما أنا فقد صحوتُ بعد ثلاثة أيام لأجد نفسي في غرفة معزولة بمستشفى العباسية، وعلى عاتقي حكايات أسمعها عني، وكأني أسمع حكايات أبوزيد الهلالي، وتهمة ستصبح الأولى في سجلي الإجرامي.. تهمة قتل دفاعًا عن النفس.. والقتيل زوج أمي، والآلة المستخدمة جسم صلب راضٍّ محدد المساحة وُجِدَ في يدي، وهم يناظرون مسرح الجريمة: مطرقة ملطخة بدم من فصيلة o سالب تماثل فصيلة زوج أمي، وفصيلة الدماء على ملابسي ويديّ.

أشعر بأني في كابوس مثل حياتي التي عشتها كلها، أحاول أن أصحو منه ولكن على خلاف ما سبق لا أستطيع الهروب.. أنا الآن يقظ، ولكني تائه، لا أعرف من أين جئتُ، ولا متى جئتُ هنا.

يسألني الطبيب كثيرًا، فأجد أن حياتي كلها كانت سلسلة من الذكريات المفزعة.. من بينها مناطق معتمة تعجز الذاكرة عن ملئها.. وكأن ذاكرتي ثوب مهترئ أعجز عن قَطْبه مهما حاولت.. في حياتي أوقات كثيرة كنت فيها سجينًا، وكان هناك غيري يدير حياتي.. شخصيات وأصوات كانت هناك حين لم أكن أنا قادرًا على الوجود.. حين كنت أكره حالي وصوتي وصورتي في المرآة التي كانت تُذكِّرُني بالكره الذي عشتُ به طفلًا حين كنت غارقًا في كره نفسي وحياتي، كانوا هم أكثر قدرةً مني على الحياة.

أما هو فقد كان النقيض لما عشت عليه، وكان يملك كل ما افتقدته، وقد تخلَّص من كل الخصال التي جعلتني هيّنًا رخوًا.. كان لا يملك مشاعر كتلك التي كانت تنخر في جوفي.. كان لا يشعر بأحد أو بعذاب أحد أو بآدمية أحد، فلا يستطيع أن يؤذيه أحد.. كان لا يرى في الكون إلا نفسه، واستباح من الكون كل الكون وكل البشر.

سألت نفسي كثيرًا عن شعوري تجاهه.. ذلك الذي يشبهني ولا أشبهه.. فأنا أرى كم نحن مختلفان، ولا أحبه حقًّا ولكني لا أكرهه برغم كل ما يصنع، وبالرغم من انعدام الشعور وانعدام الروح في عينيه.. إلا أني أغبطه.. فهو عقل لا يمكن اختراقه، إذ ليس له أي عمق.. عقله مُسطَّح لا يملك ذكريات مؤلمة تعطيه بُعدًا ثالثًا أو عمقًا كذلك الذي تصنعه بنا تجارب الحياة.. أسأل نفسي كثيرًا إن كان بشرًا؟! فهو لا يملك ذلك التواصل الروحاني الذي يتحاور به البشر بين بعضهم كلغة حوار غير معتمدة ولا معلنة.. تلك اللغة التي تجعل المرء يتألم إذا رأى ألم غيره في صورة

أو سمع عنها في حكاية.. هو لا يملك تلك الوسيلة ولم يَسْعَ أبدًا لامتلاكها.. بل أظنه تخلَّص منها كنوع من أنواع التطور الناتج عن طفرة كانت نتاج ما ألَمَّ بي من فشل سابق في إدارة حياتي وحواسي.

لا أعلم متى يظهر ومتى يُقرر النوم.. ولكني أعلم أنه موجود قابع فوق عجزي.. يثيره مني كل خنوع وضعف وربما يوقظه فزعي.. ربما كنت أنا من يستغيث به، لا أعلم.

لا أستطيع أن أعيد تمثيل الجريمة، فأنا لم أكن هناك، ولم أقتلها بل قتلها هو.. اسألوه هو حين يصحو.. أما أنا فأنا أعاني كما عانيت طوال حياة بأكملها.. لكني الآن أعاني من اضطراب الهوية التفارقي، أو كما تُعرِّفونه باسم «اضطراب تعدد الشخصيات».

هامش: اضطراب الهوية التفارقي

هذا الاضطراب على الرغم من ندرته إلا أنه مثير للباحثين في مجال الطب النفسي الشرعي خاصة وكل المبدعين عامة.. تناولته الدراما المصرية والعالمية من زوايا كثيرة، منها ما هو واقعي وكثير منها متطرف، بحيث يصبح هذا الاضطراب مصحوبًا بقدرات خارقة ومعجزات.

ولكن ما حقيقة هذا الاضطراب؟

في حوار مع أصدقائي من الطبيبات النفسيات على مائدة إفطار جمعتنا وجمعت معنا نقاشات متشعبة، تطرَّق الحوار لهذا الاضطراب، وسألت: ما مدى انتشار هذا الاضطراب النفسي

أو بمعنى أصح، في خلال خمس وعشرين عامًا من ممارسة الطب النفسي كم حالة مرّت عليكن شُخِّصَت بهذا التشخيص.

جاءت الإجابة كما توقعت وكما هو معروف، فلم ترَ واحدة منهن ما يزيد على حالة واحدة في عمرها العملي.. ولكن حالة واحدة مُشخَّصة كفيلة بأن تقلب الموازين، بما لا يدَعُ مجالًا لمنطق في حكم على المريض.

في الطب الشرعي النفسي لا بد للطبيب أن يُقرِّر مدى مسئولية المريض عن جرمه.. ومدى قدرته على المثول أمام المحكمة.. ففي عُرْف الطب الشرعي النفسي المريض إما غير مسؤول عن فعله، وإما هو مجرم مسؤول.. ولبيان ذلك فإن التشخيص مهم جدًّا.

هذا الاضطراب هو أحد الاضطرابات التفارقية (اضطرابات انشقاقية)، وهي حالة تتميز بوجود هُويَّتين أو شَخْصيَّتين أو أكثر للفرد يتناوبان في التحكم بسلوكياته ووعيه، ومن أسبابه: مَقْدِرَة فطرية على الانفصال بسهولة، والتعرض المتكرر لنوبات من الإيذاء والتعسف الجسدي أو الانتهاك الجنسي الحاد في مرحلة الطفولة، وعدم وجود شخص داعِم للتصدي للإساءة، والتأثير السلبي من قبل أقارب أو معارف لديهم أعراض أو اضطرابات فصامية، ويتميز عادةً بالأعراض التالية: فقد الذَّاكِرَة أو النَّسَاوَة، وتَبَدُّد الشَّخْصِيَّة، والغُرْبَة عن الواقِع، واضْطِراب الهُوِيَّة.

في مرحلة مبكرة جدًّا من التكوين إذا كان الطفل يتعرض للإيذاء ولا يجد من يتصدّى له فإنه أحيانًا يلجأ إلى إيجاد شخصية عادةً ما تكون أكثر قوةً منه تستطيع أن تدافع عنه أو تدفع عنه

الأذى.

عرف تاريخ الإجرام حالةً من هذا الاضطراب لا تُنسى وهي حالة بيلي ميلليجان الذي اتُّهِم بجرائم متعددة وتم تشخيصه بانشقاق أدَّى به إلى الاستعراف على ما يزيد على أربع وعشرين شخصية مستقلة.. ما يميز ميلليجان هو أنه وُجِدَ غير مذنب بسبب تشخيصه.. إلى يومنا هذا لا يزال هناك المشككون في تشخيصه، والكثيرون الذين يناهضون وجود هذا المرض.

في نهاية المطاف، هناك إشكالية حقيقية في طريقة تناوُل الأدب والدراما لمرض نادر الوجود صعب التشخيص مثل هذا، حتى إن الكثير من المبدعين صوَّروا هذه الظاهرة وكأنها ظاهرة كونية تحمل في طياتها ما يفوق المرض النفسي.

إن تحدَّثنا عن هذا المرض على أنه صعب التشخيص جدًّا ونادر الحدوث، فإننا نغفل كذلك عدم ثبوت جدوى جميع سبل العلاج المستخدمة، والتي تهدف في المقام الأول إلى محاولة دمج جميع الشخصيات الفرعية التي خلقها المريض في داخل عقله، والعمل على أن يتقبَّل المريض وجودهم كجزء لا يتجزَّأ عن شخصه.

وحيث إن هذا المريض هو مريض شديد الذكاء، فإن تشخيص هذه الحالة النادرة يتطلب متابعة طويلة الأمد قبل أن يصحَّ التشخيص.

هدف التطرق إلى هذا النوع من الجرم المصحوب بمرض نفسي واضح المعالم شديد التأثير هو دحض افتراءات وتطرُّف الفن في تناولها، وكذلك دحض تشكُّك العامة في وجودها، والتماس ذلك

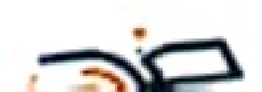
الخيط الرفيع الذي يتيح للمرء استخدام الحكمة في فهم الكثير من المؤثرات على قرارات العدالة.

الحكاية الأخيرة

رحلة في ضمير قاتل

«من الصعب فهم عقلية الشخص السيكوباتي ولكي تفهمها يجب أن تضاهيه في الجنون»

دان سيمونز



(١٧)

سألني في هدوء: «هل يعجبك عقلك؟»

ما هذا السؤال الذي ينقصه الذكاء؟!!! بالطبع يعجبني بل وأفتخر به.

من يظن نفسه ليسأل سؤالًا كهذا؟ فما هو إلا معالج نفسي خصَّصته لي المحكمة؛ ليفحصني ويقرَّ بسلامة عقلي.. نظرتُ إليه في حذر.. كان شابًّا صغيرًا يبدو أنه حديث التخرج لا يعرف عن مهنته الكثير، وينقصه الثقة بالنفس كما يتضح من ارتجاف القلم بين أصابعه وهو يجاهد ليدوِّن ملاحظاته في كتابه الصغير..

منعتُ نفسي من الضحك بصعوبة، ولكن سرعان ما استحالت الرغبة في الضحك إلى غضب.. كيف استهانوا بي هكذا، وكيف أوكلوني لهذا المبتدئ، ألم أكن أستحق بعض الاحترام وأنا الذي قتلتُ عشرة أشخاص بدم بارد، وأتعبت رجال الشرطة بحثًا عني طيلة اثنين وثلاثين سنة!!!

ماذا يجب على المرء فعله ليستحق بعض الاحترام؟!

على مدار ما يزيد على ثلاثين عامًا لم أطلب سوى الاحترام والتقدير.. منذ أول يوم فعلت فيه ما وُصِف بأنه جريمة شنعاء.

أذكر كم كان ذلك يسيرًا عليَّ.. أذكر شعور اللاشعور وأنا أكبِّل ضحيتي في بيتها وفي غرفة نومها؛ لأنتزع منها إرادتها قبل عفافها.. كان شعورًا لا يضاهيه نشوة، وأنا أرى الفزع والاستسلام في عيون تعرف أنها مفارقة الحياة، شعور لا يوصف، شعور بالألوهية

المطلقة.

تذكرتُ تلك النظرة وقد رأيتُها من قبل.. رأيتها يوم احتبست يد أمي بالمقعد وقد انطوى عليها الظهر الخشبي، وباتت لا تقوى على تخليصها.. كنتُ في السابعة من عمري وأذكر نفسي وأنا أقف مسلوب الشعور.. لم أتعاطف معها البتة، ولم أحاول مساعدتها، بل وقفتُ أتأمل تلك النظرة الفزعة في عينيها، وقد انحبس الدم عن يدها الأسيرة، فانطلقت منها صرخات الألم.

تعجَّبت أمي ذلك اليوم من وقوفي كلوح ثلج أتأمل الفزع في عينيها في نشوة المشتاق.

زارتني بعدها في أحلام المراهقة كثيرًا، وعلى وجهها ملامح مرتاعة حبيسة، وكان يقابلها جسدي الذي يقترب من النضوج بانفجار مشبع أصحو عليه وعلى وجهي ابتسامة تُضمر في طياتها شرًّ دفين.

لم أتحدث يومًا عن تلك الأحلام، ولكنها كانت ترافقني دومًا كالظل، حتى صارت جانبًا مظلمًا من شخصيتي لا يعلم عنه أحد شيئًا.

أو ربما رأت أمي ذلك الوحش في عيني.. لا أدري وإلا ما تفسير ذلك الكره الذي أشبعتني إياه طيلة سنوات شبابي الأولى؟!
كنت أرى انعكاس ذلك الحيوان الجاثم بين ضلوعي في عينيها كلما نظرت نحوي.

هكذا استحالت نظراتها لي كاشفةً مهددةً تُنذِر بانقضاء مشاعر

الأمومة والحنان، ولم أستطع إلا أن أبادلها الكره كرهًا.. فهي التي كشفت اللثام عن الجاثوم الذي بات يملأ الخواء بداخلي.

خارت من أنفها وهي تلفظ النَّفَس الأخير من بين شفتين غلظتا من احتباس الدم، وقتمتهما الزُّرْقة وأنا أحطِّم رقبتها بكفِّي الغليظ.. ابتسمتُ في إشباع يومها وأنا ألتقط قطعة من ملابسها من على الأرض للذكرى.. لا أدري أي ضحية هذه لكن كلهن سيَّان.. كلهن فتيات عاملات صغيرات الحجم، وكنت أترصَّدُهن واحدةً تلو الأخرى.. لا أعرف لهن أسماء.. فكنت ألقبهن بأسماء مشروعات صغيرة، وكانت الواحدة منهن حين تصير مشروعًا كانت تفقد اسمها.. ربما ساعدني ذلك أن أفقد إحساسي بآدميتهن فيصير القتل سهلًا.. فما أسهل القتل حين يكون القتيل بلا روح ولا اسم.

بل ويصبح القتل مشفوعًا إذا ما كانت الضحية بلا حراك ولا صوت.. هكذا كُنَّ جميعًا وهن مكبلات بالحبال، وقد التصقت أفواههن بلاصق أعددتُه خصيصًا لهُنَّ.

سألت نفسي كثيرًا حين نحرت ضحيتي الأولى كيف أني لم أشعر بشفقة ولو قليلًا على أولادها الثلاثة وأنا أذبح الواحد تلو الآخر، وسط صراخ وعويل لا ينقطع.. ولكن لم تأتني أبدًا الإجابة؛ فقد رأيتُ الأطفال الثلاثة عرائس بلا روح، وحين وقفتُ على باب البيت قبل الرحيل ألقيت نظرةً على ما سيُصبح بعد ذلك أول مسرح جريمة لقاتل متسلسل جديد.. ولم أملك إلا الإعجاب بلوحة صنعتها وحدي، أمَتُّهم وكأني إلهٌ، ورسمتُ النهاية وحدي.. لوحة الكمال.. بل أنا الكمال ذاته.

«ألا أعرف كيف ناطح العدالة كل هذا العمر».

سأل خبير الأدلة الجنائية زميله وهو على باب غرفة الأحراز التي حوت مقتنياتي ونتاج أعمالي الفنية غير العادية.. ليتني أستطيع إجابته، فأنا الأذكى، وأنا كنت دومًا المسيطر على مجريات الأمور.. كنت أراقب الشرطة في تحركاتها لمحاولة الكشف عن هويتي، وكنت أضحك وأنا أراهم يسابقون ظلهم.. وكنت أنا شبحًا لا معالم له؛ لا وجه له، ولا وصف.. كانت كل استنتاجاتهم خاطئة، كانوا يبحثون عن صورة صنعوها لي في خيالهم.. ربما صورة وحش في شكل آدمي.. لهذا ظلوا يتتبعون السراب.. أما أنا فكنتُ أبًا وزوجًا وموظفًا مثاليًا له قرين خبَّأه تحت الفراش في حقيبة.. خبَّأ فيها الحبل والشريط اللاصق ومقتنيات ضحايا ماتوا تاركين وراءهم غنائم انتشيت بها وأنا وحدي.

جلستُ على حافة السرير الحديدي في عنبر الخطرين في السجن أنظر بإمعان إلى يدي وقد نفرت عروقها.. ترى هل يجري فيها دم مثل ذلك الذي أسلته من ١٠ ضحايا مسلوبي الإرادة والكرامة والحياة؟ ربما.. ربما يجري فيه ما يجري في عروق الآلهة.

تذكرتُ تلك السنوات التي انقطعتُ فيها عن مشروعات القتل تلك.. كنت قد أنجبت ابنتي الكبرى، وكانت حياتي قد تحوَّلت إلى مسؤوليات عظام تتمحور كلها حول ذلك الملاك الصغير.. ظننتُ لوهلة أني قد أصبح لي شعور كباقي البشر، ولكن الحق

أنني كنت أشعر بأن ألوهيتي قد انتقصت بين حفاضات ومشاوير بالسيارة.. لم أستطع النظر للشخص الجديد الواقف بالمرآة.. كنت أريد رحيله سريعًا فأعود ذلك الرب الذي يأمر فتخجل الروح وتهرب إلى لاعودة.

أقف هادئًا أمام القاضي.. أخيرًا قليل من الاحترام لقاتل من أكثر القتلة بغيًا في التاريخ.. أخيرًا حُلم تحقَّق.. صرتُ وجهًا لتقارير الصحف التي كانت لسنوات قصص فزع وقتل دون وجه لدور البطولة.. أنا الآن ذلك الوجه.

أرى وكيل النيابة يصول ويجول، وينعتني بصفات الوحوش، ظنًّا أنه يهينني، وهو لا يعلم أن هذا هو ما سعيتُ له عمري بأكمله.. يظن أنهم نجحوا في القبض عليَّ لأني أخطأت وسقط عني الحذر.. الحق أنني أردت الخروج إلى النور؛ لأجني المجد الذي زرعتُه طيلة ثلاثين عامًا.. آن الأوان ليكون لهذه الروعة ربٌّ له وجه وله اسم، بعد أن ظل اسمي على الصحف يشار له بـBTK لسنوات طوال.

الآن لي اسم ووجه وكرامة لم أنلها أبدًا في حياتي..

فتسألني إن كان يعجبني عقلي..

ماذا تظن؟

هامش: علم التنميط الإجرامي

«نحن القتلة المتسلسلون قد نكون أبناءكم او ازواجكم، نحن في كل مكان ومن المؤكد انه سيموت الكثير من ابنائكم غدا وكل

غد» تد بندي

علم التنميط الإجرامي هو علم قائم على رسم تصوُّر للقاتل ودوافعه المعلنة والخفية؛ لتضييق الخناق عليه في البحث.

يقوم هذا العلم على فهم خلفيات المجرمين وأسلوب تفكيرهم وشكل ومنشأ الـ Modus operandum وهي الأسلوب الخاص لكل واحد في ارتكاب الجريمة.



سيد الاعترافات

«لا يثبط العقل ويخدر الروح أكثر من قبول الثوابت»

إدوارد سابلير



لا أدري إن كنتُ أهلًا لذلك، فأنا لست أول الراحلين، ولا آخرهم، أنا كمن سبقني؛ فصلٌ في كتاب انطوى إما على استحسان وإما على استهجان، ولكنه انتهى.. أتحدث اليوم من حيث أكون، فحتى الموت لم يفنِني وكيف أفنى وأنا لم أُستحدث؟

بيدي أني كنت هنا من قبل فهذا المكان لا يبدو موحشًا أو جديدًا عليَّ، أشعر وكأني جُبْتُه كثيرًا قبل أن تطأ قدماي الأرض.. لا يبدو أن للمكان حدودًا ولا تظله سماء ولكنه موجود، لا تسألوا عن عنواني إذًا، ولا تستدعوني، فأنا لم أبرح العالم، رغم أني تركت لكم الفراغ حيث كنت، أم إنني ربما لم أكن يومًا هنا؟

لا أذكر الكثير، رغم أنني قضيت لحظات تذكرت فيها العمر كله ما عشته وما لم أعشه، أليس عجيبًا أنني لا أذكر؟ أتذكر الآن الأفلام الأجنبية التي كنت أعشقها، والتي تتحدث عن حياة ما بعد الموت وأتعجب.. لم تظهر الروح دومًا تائهة وقد غابت عنها الهوية والذكريات؟ لم تفقد الروح اسمها وتاريخها وتجوب الشاشة باحثة عن هوية فقدتها؟ أتعجَّب على حالي.. فأنا دون هوية الآن حقًّا، ولكني لا أبحث عن شيء، ولا أشعر بالفقد أو الضياع، بل أتساءل بين ثنايا القلب إن كان ما مضى من الحياة حقيقيًّا أم إنه كان سرابًا.. وكأني الآن عدتُ حيث كنتُ.. وأنني ربما برحت وطني لحظات أقصر من أن أتذكرها.

أرى كيف تحيطون الموت بهالة من الغموض وأسئلة لا تنتهي، وكأنه حدث نهائي ما بعده مجهول، ولكني هنا لا أشعر بأن ما مرَّ بي حدث.. أشعر بأن ما عشتُه بينكم كان هو الحدث الذي



ربما تساورني حوله الآن الكثير من الشكوك.. لا يبدو الأمر جليًّا كما كان حين كنت داخل الجسد الفاني، بل إني أتساءل إن كنتُ قد برحت مكاني يومًا إلى أي جسد.. أم إنني ربما كنت أحلم حُلمًا استيقظت منه على واقع أَلِفْتُه من قبل.. هكذا أشعر بما كان.. كان حُلمًا تشاركتُ فيه مع غيري، فصحوت وهم لا يزالون نيامًا.

ترددت على أذني كلمات حفظتها:

«الناسُ نيامٌ فإذا ماتُوا انتبَهوا»

تجتاح عقلي صور للحظات سبقت الخلاص، مِقْوَد في يدي وصوت أم كلثوم يعبق المكان وكأنه لحن من السماء:

«أهرب من قلبي أروح على فين؟

ليالينا الحلوة في كل مكان

مليناها حب احنا الاتنين

وملينا الدنيا أمل وحياة»».

يسطع في عقلي سؤال لا يجد له جوابًا: هل ملأنا الدنيا حياة حقًّا أم إننا ربما عشنا نحلم بحياة وُجِدَت قبل أن نولد، وأننا وُلِدْنا في حلم نتشاركه جميعًا لنكون معًا مظهرًا من مظاهر تلك الحياة.

أصوات متنافرة يشقُّها صوت سيارة الإسعاف المسرعة، ومن بين صيحات السارينة أصوات توترت ووجوه شُحِبَت من هول ما رأت، فلقد كان الموقف أشد ترويعًا من أي حادث سابق..



يطبق صاج متفدّغ على أنفاسي، فلا أستطيع الحراك.. يحزم الفراغ الضئيل صدري فلا قدرة لي على الشهيق.. تُنازع خلايا جسدي تحت وطأة انعدام الأكسجين.. تُقاتل لتتمسَّك بالحياة بكل الوسائل حتى تضمر.. خلايا جسدي اعتادت انعدام الأكسجين، وتثابر لفترة طويلة، لكن خلايا مخي لا تستطيع، فتركع أمام الحرمان، وتُسلِّم له مُعلنةً النهاية.. كنت أظن أن الموت لحظة، ولكنه حلم آخر يطول ربما أكثر طولًا من الحياة ذاتها.

خلايا المخ تضمر رويدًا رويدًا لتفقد إطارها أولًا.. وفي كسور من الثواني ترسل إشاراتها الأخيرة.. كل خلية ترسل إشارة كالومضة، وترسل معها ذاكرتها وما اختُزِنَ فيها، ذكريات خلوية حفظتها وجادت بها في تلك الومضة الأخيرة.

هكذا هو إذًا ما يُسمُّونه شريط الحياة.. فقد رأيته كله في لحظة واحدة.. عمر كامل يتجلَّى كطبقات فوق بعضها، متلافيةً عنصر الزمن تمامًا كالحلم، هكذا كانت لحظة الموت.. عشتها كعمر كامل، وكأني في مراجعة سريعة لحلم عشته قبل الامتحان.

لا أدري أين ذهبت الومضات بعد أن أضاءت سماء عقلي ولكنها لم تنتهِ.. فكيف للطاقة أن تذهب إلى عدم؟ هربت الذكريات معها إلى الفضاء لتقابل ذكريات الكون منذ النشأة وذهبت معها، أم إنني ربما هي.. فأنا أجوب الكون الآن فكرة لا تنتهي، فكرة وكأنها مقطع وحيد في أغنية أبياتها لا نهائية.

أشعر أني عُدْتُ من حيث بدأت، صحوتُ من غفوة ربما لم تزد

على دقائق، ولكني عشتُها كعمر كامل وكأنها حلم، أظنه حقًّا حُلمًا تشاركته مع غيري حتى صحوتُ، ما زالوا هناك في ذات الحلم يودِّعون جثمانًا لم يكن يومًا حقيقة، ويبكون ويشتاقون ويخافون وكأنهم يعيشون كابوسًا.. بل إنهم حقًّا في كابوس سيستيقظون منه الواحد تلو الآخر.

إن كان جثماني هو جزء من الحلم، فماذا أكون أنا؟

إن كانت الحياة بأحداثها بابتساماتها ودموعها وخوفها وأمنها.. إن كانت كلها حُلمًا، فمن أنا في عالم اليقظة؟ هل يوجد «أنا»؟ هل ما زال هناك وجود للذات؟؟ أم إنني كغيري فكرة محمولة على طاقة لا تُستحدث من العدم وبالتالي لا تفنى!

أنا جزء من عقل جماعي يكافح ليستيقظ وجزيئاته في سُبات تحيا حُلمًا.. أنا عدتُ إلى العقل اليقظ فكرة بها من اليقين شطر يبحث عن ائتلاف.. ما بين ائتلاف وانفصال كلنا جزء من عقل جماعي بعضه في صحوة وبعضه في سُبات عميق.. عقل يسعى للصحوة منذ الأزل.. لكن الأزل في الحلم بيوم واحد في عالم الصحوة.. فكل يوم في اليقين بألف سنة في الحُلم، ألف سنة في حُلم يتشاركه النيام، ونصحو منه لنجدنا في ذات اليوم، يوم أوله طاقة تائهة في الكون وآخره قيامة، يوم نقوم فيه طاقة متحدة وعقل واحد، عقل هو الكمال ذاته، عقل كلنا منه، وله في أرواحنا قبس.

هذه شهادتي وقد شارف اليوم على الانقضاء.. هذه شهادتي من صحوتي الجديدة بعالم اليقين.. أنتظركم جميعًا حين تفيقون.

على هامش

«ميت مطلوب للشهادة»

«لا يستطيع العلم كشف الغموض الأكبر للكون حيث أننا في التحليل النهائي جزء لا يتجزأ من الغموض الذي نسعى لفهمه»

ماكس بلانك



حين شرعتُ في مشروع كتاب «ميت مطلوب للشهادة» كانت هناك أسئلة تتداول مجتمعيًّا حول دور التكنولوجيا.. وما هو مستقبل بعض الوظائف التي ربما ستندثر وتُبدَّل بأخرى لا تتطلب نفس المهارات.. سألتُ نفسي عن الطبيب الشرعي، وما إذا كان وجوده ذا جدوى أم إن القرارات الطبية الشرعية من الممكن أن تُبدَّل بألجورزمات يغذى بها حاسوب ذكي.. فيخرج منه اسم الجاني، أو حتى احتمالية أن يكون هو مَن أحدث الضرر بنفسه.

إن المهارة التي يتحدث عنها الكتاب ويصفها هي مهارة اكتسبها البشر بالتعلُّم التراكمي عبر آلاف السنين من خبرات ولُغات تواصُل وحواسّ تم صقلها، ليضفرها الطبيب الشرعي معًا، فيصنع منها لغة تفك الطلاسم وتكشف المستور.. ينوِه الكتاب في مضمونه القصصي والسردي أن العلاقة بين الطبيب الشرعي والمجني عليه ليست علاقة من طرف واحد.. إنما هي علاقة تواصل يتبادل فيها الطرفان الحوار، وينتج عنها جلاء البصر لكلا الطرفين.

كما قلتُ سابقًا فإن الميت لا يكشف غطاءه إلا لمن يريد ومن يستطيع الحوار معه.. لا أتخيل عالمًا تقوم فيه ماكينة ذكية بهذا العمل.

عِلْم الطب الشرعي علم فريد في ذائقته، متميز في ممارسته.. فلا يزهر إلا لمن عشق ثناياه، واحتضن معانيه، وعرف أنه بامتلاكه، فقد امتلك لغةً لا يملكها غيره.. وتعرَّف على وسيلة لا يمكن لأحد أن يستخدمها غيره.



قديمًا كان العراف يجلس أمام كُرة من الزجاج فيتنبأ بالمستقبل.. وكذلك الطبيب الشرعي يجلس أمام الدليل، فيروي الماضي ويرى المستقبل.

الذكاء ليس كله من الممكن اصطناعه.. وبعض الذكاءات لا تُوارث ولا تُدرَّس، ولكن تُعاش، ولا تنمو إلا حين تُروى.

هناك الكثير في هذا العلم الذي وُلِدَ من رحم الحاجة إلى تقديس الموت وإعزاز الإنسان حيًّا أو ميتًا.. الطب الشرعي يتعامل مع أسباب الوفاة وأنواع الجروح ومسببات الاختناق والظواهر الطبيعية والتسمم، وكثير من أدلة مسرح الجريمة كالسوائل والأنسجة والدماء، بالإضافة إلى الاستعراف باستهداف صور الأسنان والحامض النووي وشكل العظام وقضايا المسؤولية الطبية وقضايا هتك العرض... وغيرها الكثير.. وما يَجمع كل ذلك في بوتقة واحدة هو استهداف الحقيقة.

يتبع ذلك العلم علم تابع وهو علم الجريمة وفهم سيكولوجية الجاني والمجني عليه.. ثم نما على أكتاف هذا العلم علم التنميط الإجرامي.. ورسم صورة للجاني من خلال شكل الجريمة.

فالطبيب الشرعي يجب أن يكون مُلِمًّا بكل هذه التفاصيل وكل هذه العلوم؛ فقد اكتسب صفة القاضي الفني من إلمامه بكل هذه العلوم وتطويعها لتكون في خدمة المظلوم.

حين أُعلِّم طلابي في محاضرات الطب الشرعي أبدأ دائمًا بسؤال: هل تعرفون لِمَ عليكم دراسة الطب الشرعي بكلية الطب؟

وفي الحقيقة هذا سؤال غاية في الأهمية، فليس كل طبيب متخرج في كلية الطب هو طبيب شرعي، ولكن كل طبيب متخرج في كلية الطب هو حلقة من الحلقات في سلسال درء الأذى، ولكي يستطيع الطبيب التعاطي مع هذا الدور عليه أن يحمي نفسه من أن يقع فريسة ضياع حق مجني عليه، فالطبيب هو أول من يُناظر المتوفى قبل استدعاء الطبيب الشرعي، وعليه أن يسأل الأسئلة المهمة حول الوفاة، وأن يستدلَّ على الحالات التي تتطلب تدخُّل الطبيب الشرعي.. فهو أول من يحفظ الأدلة ومسرح الجريمة، وعدم وعيه قد يؤخر كثيرًا، وينتقص بشدة من عمل الطبيب الشرعي.

هذا هو الطبيب، ولكن دون شك على المجتمع أيضًا دور مهم في الشك، وفي حفظ حق المتوفى.. ومن هنا كان التثقيف المجتمعي في غاية الأهمية.

تصوَّرْ مسرح جريمة يأتيه خبير الأدلة الجنائية وقد دنسه قبله الناس دون وعي.. هو فرصة ضائعة لجلاء الحقيقة وَأَدَها جهلُ الناس.

تصوَّرْ أيضًا قتيلًا استُخْرِج من مياه البحر ودفنه أهله، وقد تغاضوا عن جُرحين نافذين في الصدر.. هذه فرصة أخرى ضائعة للإمساك بقاتل قبل أن يُعيد جرمه من جديد، فرصة أضاعها الأهل نتاج معتقدات ظالمة لها علاقة بحرمة الميت.

تصوَّرْ فتاةً تم الاعتداء على شرفها، وجاءت تبلغ بعد أن غسلت عنها كل الأدلة؛ نتاج عدم وعي ينتج عنه أن يهرب الجاني

ويفلت من العقاب.

«ميت مطلوب للشهادة» محاولة لاستخدام القصص؛ لمساعدة القارئ على أن يفتح أفقه ليسأل السؤال الجيد، ولا يقبل إلا الإجابة الجيدة.

في عهد غير بعيد وفي حُلم أو علم أو ربما كان في أساطير الأولين، وقف أناس أمام إحدى دور العدل يُشككون في الطب الشرعي، ويتهمونه بالتحيُّز واللامسئولية.. حين هتفوا جهلوا عما يهتفون، وحين اتَّهموا اتَّهَمُوا فيما لا يفهمون.. تقول الحكاية إن صراخهم وأصواتهم العالية كانت بهدف تغيير قناعات الطبيب الشرعي والعبث بميزان العدالة.. علت أصواتهم.. أصابهم سوء التوقُّع وسوء الفهم.. فقد ظنوا أن العدالة لها أُذُن تسمع وتتأثر بها، وأن الطبيب الشرعي قادر على أن يُغيِّر قناعاته.. مشهد عبثي مجمله أن الناس تخشى ما لا تفهم، وتشكُّ فيما لا تعرف.

ثم نُعيد حكايتهم من جديد في عهد ما بعد التنوير.. وقفوا هم أنفسهم لا يرفعون أصواتهم خشية أن يعترضوا عمل الطبيب الشرعي، أو يؤثرون على حواره مع المتوفى، وقفوا وقد لاحظوا الظواهر حولهم وأيَّدوا تفاصيلها.. وقف الناس ولديهم أسئلة تستحقُّ النقاش.. يعرفون أنهم سيجدون لها الإجابة عند المتخصص.. فهم يُكنُّون له الاحترام والتقدير.. لا يرفعون أصواتهم؛ لأنهم يعلمون أن المسألة محسومة لن يُغيِّر فيها صوت.

ما بين المشهد الأول والثاني تنوير عظيم يقع على عاتق المتخصصين.. عليهم أن يجدوا صيغة تفهم الناس تفرُّد عملهم،

ووسيلة تزيد من احترامهم لدور الطبيب الشرعي.

إن كنتَ قرأت «ميت مطلوب للشهادة»، فأمنيتي أن تخرج وقد قررتَ ألا تقف في وجه العدالة معترضًا، إنما تقف وتسأل أسئلة تستحق الإجابة.. تستلهمها من مشاهدات كتابي هذا.



شكر وتقدير

جزيل الشكر والعرفان لكل من آمن بأن لي كلمة تستحق أن تُقرأ، ولكل من شجّعني وقرأ لي حين كانت كلماتي أفكارًا على صفحات التواصل الاجتماعي، وأخصُّ بالذكر:

د. أسامة الشاذلي قارئي الأول.

الصديقة ميرفت حسين صاحبة الفضل في المراجعة والرأي.

أستاذ مصطفي عبيد صاحب النظرة الناقدة.

قراء صفحتي الأدبية ومتابعيَّ.

د. أحمد سلامة المبدع الذي قرأ لي كما أحب أن يقرأ لي.

